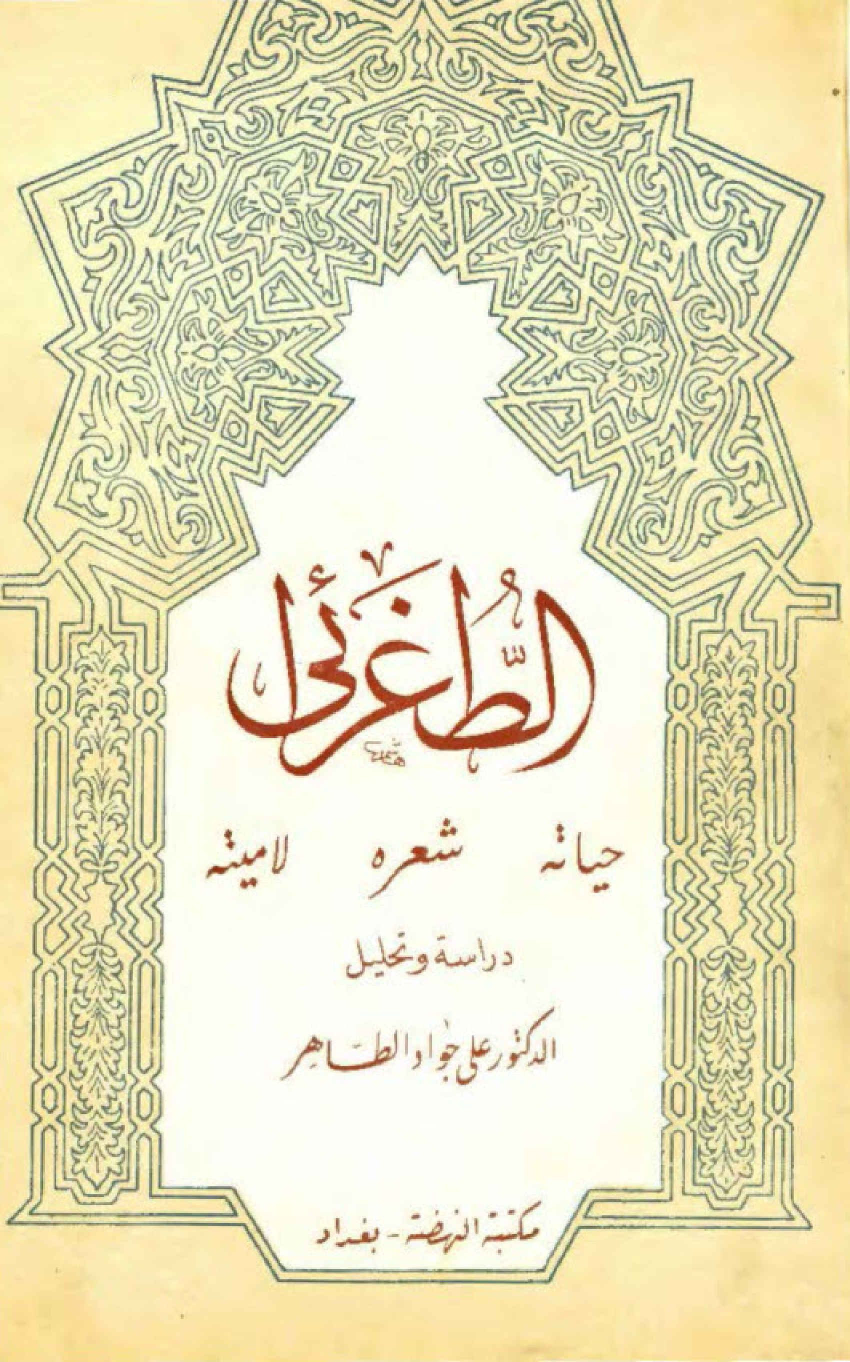


الطغرائي

حياته شعره لاميته

دراسة وتحليل

الدكتور علي جواد الطاهر

مكتبة النهضة - بغداد

الطغرائي

حياته • شعره • لاميته

- الطبعة الاولى ـ بغداد ١٩٦٣

- مطبعة دار التضامن ـ بغداد

علي جواد الطاهر



حياته - شعره - لاميته

(بحث وتحقيق وتحليل)



منشورات - مكتبة النهضة - بغداد

مقدمــة

كان نظام دار المعلمين العاليــة (كلية التربيــة ـ اليوم) يقتضي أن يكتب الطالب فيالسنة الرابعة رسالتين : واحدة في التربية وواحدة فيالاختصاص • وما ان انتهت السنة الثالثة (عام ١٩٤٤) حتى بدأنا نبحث جديا عن عنوانين ، وكان موضوع التربية سهلا ولم يحدث في اختياره نقاش : « مسكويه » •

أما الموضوع الادبي فقد طال فيه الاخذ والرد والاستشارة والمراجعة ، ولم يقبل استاذنا المشرف ، الدكتور محمد مهدي البصير : العباس بن الاحنف ، ولا الرثاء فيالشعر العربي ولا الفلسفة الشعرية ، لاكثر من سبب وجيه ذكر فيحينه •

وكنت أتردد على المكتبة العامة أقرأ دواوين الشعراء كلهم ، حسب تسلسلها في الفهرست ، دون تمييز ، لان الغرض الاول من تلك القراءة كان الالمام العملي بشعراء العربية • وقرأت ـ فيما قرأت ـ ديوان الطغرائي •

وخففت الى استاذي أعرض عليه الرأي ، فوافق • وهكذا بدأت سلسلة

غير منقطعة من ملازمة الطغرائي : ديوانه ، حياته في المراجع ، دائرة المعارف الاسلامية •• في المصادر ، ياقوت ، ابن خلكان •• وكلما ازددت قراءة ، ازددت يقينا بصلاح الرجل موضوعا للدراسة ، وبأنه مظلوم بين الشعراء ، وبأنه يحقق غاية من يريد أن يبتعد عن دراسة المدروس ويسعى الى أن يتجنب التكرار •

وبدأت أجمع •• وأكتب •• وحصل من ذلك دفتران غير صغيرين ••• ولقيت استاذي •• أقرأ عليه ، وبدأت ، وقد اقتنع بنجاح البحث منذ الفصل الاول ، وقال : آمل أن يكون الطغرائي موضوعك للدكتوراه •

ثم تهيأت البعثة العلمية ، ومكثت في القاهرة حينا أفدت خلاله من مكتبة كلية الآداب ودار الكتب المصرية امورا تتصل بالسلاجقة وبالطغرائي وبمعاصري الطغرائي •

ثم كانت باريس ، وعرضت فكرة دراسة الطغرائي موضوعا للرسالة الرئيسة من رسالتي الدكتوراه فأقرها أحد الاساتذة ، واستصغرها المسيو بلاشير ، وكان للاستاذ بلاشير ما أراد • وأصبح الموضوع : « الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ٤٤٧-٥٤٧ » وكانت حصة الطغرائي من الكتاب حصة الاسد •

وانتهت المرحلة العلمية بسلام عام ١٩٥٤ • وعدنا الى الوطن ، ولم أفارق الطغرائي ، فلقد بدأت أدرس الشعر العراقي في العصر السلجوقي ••• والعصور المتأخرة •

ونشرت عن الطغرائي ومعاصريه هنا وهناك من مجلات بغداد ، كما نقلت الى العربية رسالة « الشعر العربي ••• » وطبعت في جزءين •
ثم تأملت في شعر الطغرائي وحده ، فهداني التأمل الى آراء ودلني على مزايا ونبهني الى شواهد ، واجتمع لدي ما دعا الى تخصيص دراسة مستقلة ، ففعلت ونشرت البحث في العدد الاول من مجلة كلية الآداب (بغداد ١٩٥٩ ص ٢١٢-٢٤٣) •

ولم تستوف « لامية الطغرائي » نصيبا يذكر من هذه الدراسات ، وكان الاستاذ شارل پللا أحد المناقشين الذين نبهوا الى ضرورة عقد بحث خاص على اللامية • حتى اذا دَرَستها ودرَّستها اطلعت على جوانب مجهولة منها ووقفت على أسرار من جمالها ، واتسع الوقت للتوفر على هذا البحث •

وفي عام ١٩٦٢ كتبت في مجلة كلية الآداب بحثا مسهبا عنها ، ثم نشر منفصلا مستلا ، فلقي قبولا حسنا •

وفي العام نفسه ألفت بين أجزاء « مقالات » وشرعت في طبعه ، وقد ضم ـ فيما ضم ـ أشياء عن الطغرائي ومعاصريه •

وكانت تعاودني فكرة تنقيح ما كتبت عن الطغرائي هنا وهناك وتوحيده في كتاب خاص ـ والشاعر جدير بمثل هذا الكتاب ـ لان البحوث عنه تناثرت ومنها ما لم يعد في متناول اليد ومنها ما نفدت نسخته أو كادت •

حتى اذا كنت يوما في مكتبة النهضة وفاتحني صاحبها السيد عبدالرحمن حياوي في اعادة طبع « لامية الطغرائي » ، تطور الحديث واتسع الموضوع حتى كان هذا الكتاب الذي يراه القارىء : الطغرائي : حياته ، شعره ، لاميته •

كلمة في العصر

في عام ٤٤٧ هـ دخل طغرلبك السلجوقي بغداد ، وقضى بذلك على البويهيين ، ودخلت في ملكه رقعة واسعة قوامها العراق وبلاد العجم • وتوفي عام ٤٥٥ فتولى بعده السلطنة من آل سلجوق :

ألب أرسلان	٤٥٥ – ٤٦٥
ملكشاه	٤٦٥ – ٤٨٥
محمود بن ملكشاه	٤٨٥ – ٤٨٧
بركياروق	٤٨٧ – ٤٩٨
محمد	٤٩٨ – ٥١١
محمود	٥٥١ – ٥٢٥ •••

ولم يتخذ السلاجقة بغداد عاصمة لهم ، وان أقام أكثرهم فيها مددا محدودة ، ويمكن القول ان مقرهم كان في أصبهان •

وكانت الوزارة منصبا مرموقا في الدولة ، وقد يمسك الوزير ، اذا كان كبيرا ، كنظام الملك ، بمهام الدولة كلها •

وتلي الوزارة الدواوين : الاستيفاء ، الاشراف ، الانشاء والطغراء •• والطغرائي هو صاحب الطغراء – وهي « الطرة التي تكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الغليظ ، ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه »[١] •

---

(١) ابن خلكان ١ : ٢٨٤ ، ياقوت ١٠ : ٥٧ ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طغراء • « واللفظة أعجمية محرفة من الطرة » وفي ابن جماعة انها علامة تكتب على التوقيعات •

ويضم ديوان الطغراء : الرسائل والانشاء ويتولى صاحبه شؤون الوزارة في الصيد •

عاصر هؤلاء السلاجقة من خلفاء بني العباس :

القائم	٤٤٢ – ٤٦٧	
المقتدي	٤٦٧ – ٤٨٧	
المستظهر	٤٨٧ – ٥١٢	
المسترشد	٥١٢ – ٥٢٩	•••

وبغداد هي مقر الخلافة ، وسلطة الخليفة دينية حسب ، والسلاطين يرعونه ويتظاهرون باحترامه ، ولكنهم لا يتورعون عن مخالفة أمره أو اهانته اذا اقتضت مصلحتهم • فلم يكن للخليفة الا الاسم « لا يتعدى حكمه بابه ولا يتجاوز جنابه » • وربما حانت للخليفة فرصة أو كان له حظ من الطماح فتململ كما حدث للمستظهر يوما ما ، أو كما أعلنها المسترشد حربا على السلطان •

وتتألف حاشية الخليفة من الوزير وكاتب الانشاء وصاحب المخزن وكاتب المخزن واستاذ الدار •

وكان الى جوار حكومة السلطان وحكومة الخليفة امارات ذات بال في تاريخ العصر ، أهمها في العراق : امارة بني مزيد في النيل والحلة ، وامارة بني أبي الجبر في البطائح •

وطبيعي أن يتمتع ذوو السلطة بامتيازات واسعة وبرفاه ومال • وكان الشعراء يكسبون قوتهم أو ما يزيد عن قوتهم عن طريق المديح وما اليه ، وكثيرا ما يكلفهم ذلك اراقة ماء وجوههم دون أن يشعروا ، وقد يشعرون فلا يملكون غير الشكوى •

أما العامة فهم مادة الجيش وهم الفقراء المعرضون لشتى صنوف الأذى ، وكانت كلمة « عامي » و« سوقي » سبة • الا أن العصر لم يحل كثيرا بين الطامحين

وما راموا من مناصب مرموقة كالوزارة وما اليها . وربما تجمع عدد من هؤلاء العامة بشكل وبآخر ليثأروا لانفسهم أو ليبشروا بآراء في اصلاح شأنهم وشأن أمثالهم ، فكان من مظاهر هذه الحالة : العيارون ، الفتوة ، الباطنية .

وكانت سلسلة من النزاع تقع بين مختلف الفرق الاسلامية : الحنفية ، الشافعية ، الحنبلية .. الشيعة .

واذا كان العصر عصر اضطراب في السياسة والاقتصاد والادارة ، فانه لم يكن كذلك في شؤون المعرفة (داخل الفئة التى عرفت بها وجدت في سبلها) فقد كان عصر نضج هو امتداد لنضج العصر البويهي ، وكان له آثاره وأعلامه في الفقه والتفسير والحديث والفلسفة واللغة والتاريخ والعلوم المنقولة ، منهم ـ على سبيل المثال : أبو اسحاق الشيرازي ، الجويني ، الزمخشري ، الغزالي ، الحريري ، معتمد الملك بن صاعد بن التلميذ .

وفي هذا العصر تأسست المدارس النظامية ، ومدرسة بغداد النظامية .

وكان للادب مكانته من العصر ، وكثر الشعراء كثرة مدهشة ، وزاول الشعر خلق كثير بما فيهم الخلفاء والوزراء ، والذين غلب عليهم كثيرون كذلك ، نذكر من أشهرهم من أعلام العصر السلجوقي : صرّدر ، الباخرزي ، ابن الشبل ، الابيوردي ، ابن الهبّارية ، الغزي ، البارع ، ابن أفلح ، ابن الفضل ابن القطان ، الحظيري ، حيص بيص[1] .

---

(١) للتوسع في هذه المقدمة ينظر « الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي » .

حياة الطغرائي

مصادر الدراسة

(١) ديوان الطغرائي المطبوع ومما فيه : عائلته ص ٥٩ ، ١٠٦-١٠٧ ، ١١٧ ، زوجته ٨٠-٨٥ ، صلاته بساسة عصره ص ٣-٥٨ ، ٨٩ ، ١٨٢ ، ١٤١ ، صلاتـه بالعلمـاء والادبـاء ٨٦ ، ١٣٣-١٣٦ ، ١٤١ ، عزلتـه ٦٢ ، ٧٩ ، مدح الابيوردي اياه ٨٦ ، خلفه ٧١ ، ٧٨ .

ولا يغني المطبوع عن مراجعة المخطوطات . وفي مؤلفات الطغرائي الاخرى ما لا يخلو من فائدة .

(٢) ديوان الغزي (أبو اسـحاق ابراهيم بن عثمان ... المتوفى عـام ٥٢٤) : مخ . باريس ٥٥-٥٧ (= ديوان الابيوردي المطبوع ص ٤٨-٥٠) ، ١٠٢-١٠٤ (= ٧٢-٧٤) : يمدحه ويتكلم قليلا على عائلته وأخلاقه وعلمه .

(٣) السمعاني (أبو سعيد تاج الاسلام عبدالكريم بن محمد .. المتوفى عـام ٥٦٢) :

(أ) الانساب ، مادة المنشىء ، و ٥٤٣ أ : نسبه ، اطراء (ويظهر أن كلامه كان في الاصل أطول) ، يراجع زيدان ٣ : ٦٤ وابن خلكان ١ : ٢٨٤ .

(ب) مذيل تاريخ بغداد ، في مخطوطة مختصرة بليدن ، و ٤٣-٤٤ : أصبهان ، معارفه ، تفوقه في الشعر والنثر ، جلاله ، استشهاده عام ٥١٨ ، مختارات

من شعره ، من مصادره كتاب سر السرور .

(٤) الحظيري (سعد بن علي .. المتوفى عام ٥٦٨) ، زينة الدهر بنص ابن خلكان ١ : ٢٨٧ (يقارن عاطف) .

× - ولم يتكلم عليه ابن الجوزي .

(٥) العماد (محمد بن محمد بن حامد ، ولد عام ٥١٩ وتوفي عام ٥٩٧) :

(أ) النصرة ، الورقة ١٣٩ أ ، ١١٣ ، ١١٩ أ ، ١٢٠ ب ، ١٣٩ أ ، ١٤٠ ب : طغرائي ، عزلته ، استشهاده ، وقد احتفظ بها البنداري في الزبدة ص ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ١٧٤ . أما أخبار الدولة السلجوقية فلم يذكر الا ما تعلق بالاستشهاد ص ٩٧ .

(ب) الخريدة ، مجلدة بلاد العجم ، لم تكن نسختا ليدن كاملتين ، وكانت ترجمة الطغرائي بين ما فقد من أوراقهما . وضمت مخطوطة مجلدة الاندلس (باريس رقم ٣٣٣٢) صفحات من هذه الترجمة ـ حشرت في المجلد غلطا ، وفيها : موته عام ٥١٥ ، مختارات من شعره ، وحفظ الصفدي في شرح اللامية ص ٧ ـ فقرا نقلها عن الخريدة مما يتعلق بخدمته السلاطين ، وبراعته في الترسل والنظم وفنون العلم والكيمياء ، ومما يتعلق بقتله (وقد نقل ناشر وفيات الاعيان في طبعة دار المأمون هذا الذي حفظه الصفدي في هامش ترجمة ابن خلكان للطغرائي ، ولم يذكر الناشر مصدره ، انما ظهر وكأنه ينقل عن الخريدة مباشرة) .

وفي مختصر الخريدة الذي عمله الشيخ علي رضائي ووسمه بـ « عود الشباب » صفحات ذات بال ، في باب « فضلاء أصفهان وجرباذقان » ومنها : نسبة الدئلي ، خدمة السلاطين ، براعته ، الكيمياء ، استشهاده ، اللامية وغيرها .

وقد يحفظ الصفدي وهو ينقل عن الخريدة أكثر ما حفظه رضائي في مختصره . ومن مقابلة « عود الشباب » نعلم أن ياقوتا روى عن « الخريدة » دون أن ينص عليها .

وترد للطغرائي ، في الخريدة ، أخبار تأتي عرضا في تراجم أدباء آخرين ، كهذا الذي ذكره العماد (مخ ١٠٠اكسفورد) مما يتصل بالخمرة ، والذي ذكره في مجلدة الشام وهو يتحدث عن الغزي وما كان بينهما من مكاتبات ص ٢٧ •

(٦) الراوندي (المتوفى عام ٥٩٩) : راحة الصدور ٢٢٩–٢٤١ : ثناء ، ٢٢٥ وزارة مسعود ، الراوندي يقرأ في حضرة سلطانه قصيدة من شعر الطغرائي (= الديوان ٥–٨) دون أن يذكر اسمه • وقد يسوق الراوندي في معرض كلامه على الاعلام والاحداث شعرا لا يتصل بزمنها كفعله وهو يثني على كيخسرو قليج ص ٣٢ اذ ذكر ستة أبيات هي مطلع قصيدة للطغرائي مدح بها مجدالملك (= الديوان ٤١–٤٢) ، وحين تكلم على سنجر ص ١٧٠–١٧١ ذكر عشرة أبيات (= الديوان ٧٥–٧٦) • وقد نبه الناشر على هذه التضمينات •

(٧) ياقوت (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي المتوفى عام ٦٢٦) – ارشاد ، ٥ : ٥٢–٦٠ الوحيد الذي يذكر ميلاده • ينقل عن الخريدة دون أن ينص عليها – وقد رأينا ذلك – مؤلفاته في الكيمياء ، قتله مشدودا الى جذع شجرة ، مختارات ، يذكر اللامية منسوبة الى العجم ، ٦ : ٣٥٨ يرثي الابيوردي (يقارن ديوان الطغرائي ص ٨٤) ، ٦ : ١٨٣–١٨٦ جوابه على تهنئة الحريري عام ٥٠٩ ، ٦ : ٢٠٨ ، ابن أخت الشاعر : مخلص‌الدين كاتب سنجر •

(٨) ابن الاثير (عزالدين علي بن محمد ••• المتوفى عام ٦٣٠) :

(أ) الكامل ، ١٠ : ٣٩٥–٣٩٦ سن ٥١٤ مهم لتاريخ المصاف بين مسعود ومحمود ، قتله ، عمره ، مدة وزارته •

(ب) الاتابكة ص ٤٢–٤٣ في الموصل •

(٩) ابن النجار (محب‌الدين محمد بن محمود المتوفى عام ٦٤٣) : ذيل تاريخ بغداد • مما وصل الينا في « مستفاد » الحسامي (المتوفى عام ٧٤٩) : ديلمي (؟) (= دئلي) ، ويمكن أن نلمح خلال السطور العماد وابن الاثير •

(١٠) سبط ابن الجوزي (شمس‌الدين يوسف قُزا اوغلي المتوفى عام ٦٥٤) : المرآة سن ٥١٤ ، الدئلي ، أسـباب قتله ، خادمـه وقتل السميرمي عام ٥١٦ ، حفيده . وهكذا يستدرك السبط ما فات الجد .

(١١) ابن خلكان (شمس‌الدين أحمد بن ابراهيم المتوفى عام ٦٨١) : ١ : ٢٨٤-٢٨٧ (الحسين) ، ترجمة مهمة ، رأينا مصادر عناصرها عند العماد . ورأينا أمثالها عند ياقوت وسبط ابن الجوزي ، وينص ابن خلكان على « أنساب » السمعاني وزينـة الحظيري ونصرة العماد ، ويروي عن أبي البركات أحمد بن المستوفي مؤلف تاريخ أربل : أن الطغرائي كان وزيرا في هذه المدينة (!) ونقل الخبر عنـه الصفـدي والبارودي من دون تحقيق ، ١ : ٤٦٠ مقارنة مـع ابن الدهـان ، ٢ : ٥٣١ مسعود ، ٣ : ١١٣ ابن الشجري يروي أربعـة من أبياته (قارن الديوان ص ٦٧) .

وفي مختصر الوفيات الذي عمله البارزي و ٣٩ ب أخبار لم نجدهـا فيما بين أيدينـا من نسـخ ابن خلكان : دئلي ، أبيـات رويت عن أسـامة بن منقذ والعزيز المستوفي .

(١٢) الصفدي (صلاح‌الدين خليل بن أيبك ، المتوفى عام ٧٦٤) :

(أ) الغيث ١ : ٦-٩ ينقـل عن العماد ، ويمـكن لمح ابن الاثير - وربما ابن خلكان - خلال السطور . ولو كان الصفدي ممن راجع « الارشاد » وتنبه الى دقائقه لما أتعب نفسه في محاولة ايجاد تاريخ ميلاد الشاعر أو تقريبه . ويذكر الصفدي مؤلفـات الطغرائي ومنهـا المقاطيع . ان ضخامة كتـاب الصفدي لم تنفعنا بشيء يستحق الذكر ، ولكن هذه الاخبار التي نقلها عن غيره ، ستكون مصدرا لاكثر شراح اللامية .

(ب) الوافي ج ١١ مخ . المجمع العلمي بدمشق ص ٨٨ ينقل أخبـاره عن ابن الاثير وياقوت وابن خلكان دون أن ينص عليهم ، اطراء لاميـة العجم ، شرحه لهـا .

(١٣) ابن جماعة (القاضي عزالدين بن محمد .. المتوفى عام ٧٧٦) : التعليقة ، و ٧٣ أ-٧٥ ب ... الديلمي (؟) ، طغرائي محمود ثم مشرف ، عزله . أبيات رويت عن السمعاني أو عمن سمع الشاعر شفاها مثل الشهرزوري وابن الشجري وابن الاخوة ، اللامية من غير غزل .

بقيت مصادر قديمة ، ولكنها لا تكاد تعدو في مجموعها أن تكون تكرارا أو تلخيصا لمصادر أقدم ، كابن الاثير وابن خلكان والصفدي وهذه هي :-

ابن أبي أصيبعة : ٢٦٧ (وينظر ديوان الطغرائي ص ١٤١) - أبو الفداء ٢ : ٢٤٧ سن ٥١٥ - الذهبي في العبر (؟) ٢ : و ٤٥ سن ٥١٤ ، دول الاسلام ٢ : ٢٨-٢٩ - ابن الوردي ٢ : ٣١ سن ٥١٥ - ابن شاكر الكتبي في عيون الاخبار ١٢ : ٥١٦ سن ٥١٤ (نسخة انكلترة) - ابن كثير ١١ : ١٩٠ سن ٥١٥ - حاج خليفة في مادة ديوان ص ٧٩٨ ، وكيمياء ص ١٥٢٦-١٥٣١ ، ولامية ص ١٥٣٧-١٥٣٩ - الحنبلي ٤ : ٤١-٤٣ سن ٥١٤ - ابن خلدون في المقدمة ، كيمياء من طبعة القاهرة ٢٣٤ ، ١٩١ ، في التاريخ ٥ : ٥٠ - ابن حجلة (على هامش الانطاكي) ١٨٠-١٨١ - السبكي ٢ : ١٦-١٨ - الخوانساري ص ٩٤٨ - السيوطي في الكنز ٢١٢-٢١٤ ، ٢١٩ ، وفي التاريخ ٢٨٩ - الزبيدي في شرح القاموس ، مادة طغر ٣ : ٣٥١ - برهان‌الدين و ٩ أ-٩١ ب - شروح اللامية (تنظر قائمة المصادر والمراجع) - المامقاني ٣٣٦-٧ (ومن مصادره الشيخ الحر) .

ولم نقف في الدراسات الحديثة على شيء يستحق الذكر ، وربما كانت مقالة كرنكو في دائرة المعارف الاسلامية ٤ : ٨٧ وبعدها من الطبعة الفرنسية (وتنظر الطبعة الانكليزية) خير ما كتب . وينظر ما كتبه هوتسما في الدائرة ٤ : ١٣٨ ب وهو يتكلم على السلطان محمود ، وما كتبه دني في الدائرة نفسها وفي الجزء نفسه ص ٨٦ عن الطغراء ، وينظر هارتمان ٦ : ٨٥٨ وبعدها و Raux في ترجمته اللامية الى الفرنسية - كلوستن ص ١٥٣

وبعدها ، ٤٤٣-٤ ــ نيكلسون ص ٣٢٦ ــ هيوار ٩٨-٩٩ ــ دربل D'Herbelt
٥ : ٤٧٨-٧٩ ــ ساسي في التراجم العالمية ٤٧ : ١٩٦-١٩٧ ــ شنرر ١٨٧ ــ برون
٢ : ٢٩٩ ، ٣٥٤ (وتنظر ترجمة الشواربي) ــ زنبور ٢٥٥ (وتنظر الترجمة
العربية) ــ دائرة المعارف الكبرى ٤١ : ٣١٨ ٠

زيدان ٣ : ٢٣ ــ البستاني في دائرة المعارف ٩ : ٣١١-٣١٣ ــ الهاشمي
٥٣٣-٥٣٤ ــ الاسكندري ٢٨٢ ــ الزيات ٢٣١-٢٣٣ ــ مظهر في مجلة الرسالة ،
العدد ٢٥٩ ــ القمي ٢ : ٢٠٨-٢١٠ ــ نزهة الجليس ٢ : ٧٣ ــ العاملي في أعيان
الشيعة ج ٢٧ ــ البارودي في المختارات ــ المنتخب من أدب العرب ج ٢ ــ
سركيس ١٢٤١ ــ محمود مصطفى في الادب العربي وتاريخه ٢ :٢٦ واعجام
الاعلام ١٤٤ ــ الزركلي ٢ : ٢٦٧ ، ١٠ : ٧٤ ــ طه الراوي في مجلة الصبح ــ
مارون عبود في (مجددون ومجترون) ص ١٤٤ ــ الطاهر في « مقالات » ــ
كحالة في معجم المؤلفين ٤ : ٣٦ (وتنظر مصادره ومنها مجلة البدر التونسية) ــ
حتى في تاريخ العرب المطول ٢ : ٤٦٥ ــ شفق ١٢٨ من الترجمة العربية ــ
الجابري (في تاريخ أصفهان) ص ١٣٨ وهامش ص ٤٣ ــ صادقي (حسين نور
في « أصفهان ») ص ١٨٨ ٠

ومراجع عنيت باللامية وحدها ، ستذكر بالمناسبة ٠

سيرته

أبو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبدالصمد ، يعرف بألقاب عدة هي : العميد ، الاستاذ ، المنشيء ، الاصبهاني ، مؤيدالدين ، ولكن « الطغرائي » هو الذي غلب عليه .

ولد الحسين عام ٤٥٣هـ[١]/١٠٦١م في جَيّ[٢] من أصبهان في عائلة شريفة مجيدة[٣] من ولد أبي الاسود الدئلي[٤] فهو ـ على هذا ـ عربي الاصل

(١) ياقوت ، ارشاد ٥ : ٥٢ (وينظر الصفدي ، غيث ، ١ : ٨ « مولد الطغرائي في عشر الستين تقريبا ») .

(٢) الديوان ص ١٠٦ .

(٣) الديوان ص ٥٩ ، ٧٨ .

(٤) العماد في عود الشباب لعلي رضائي ، أبو الفدا ، ٢ : ٢٤٧ ، ابن الوردي ٢ : ٣١ ، البارزي في مختصره لوفيات الاعيان و ٣٩ ب ، وفي المرآة « قيل انه ... » . ومن المناسب أن تكون « الديلمي » التي ترد أحيانا ـ كما في المقطعات والمستفاد والتعليقة ـ تصحيفا للدئلي .

وفي محيط الفيروز اباذي « ... وفي شرح اللمع للاصبهاني : أبو أسود ظالم بن عمرو الدئلي ، انما هو بكسر الدال وفتح الهمزة نسبة الى دئل كعنب وهي قبيلة ... ابن القطاع الدئل في كنانة رهط أبي الاسود بالضم وكسر الهمزة » . وفي « لسان العرب » لابن منظور الدئل (بضم الدال وكسر الهمزة) من كنانة .

وقد يأتي نسب الطغرائي على : « دؤلي » .

وقد يأتي ايضا على : « الليثي » كما في مخطوطة لندن رقم ٧٥٣٠ التي ضمت صفحات من شعر الطغرائي . وكذلك في ابن كثير ١٢ : ١٩٠ .

ومن عقد الجمان ص ٣١٤ نعلم أن الليث ودئل من بني بكر بن عبد مناف .
وينظر القلقشندي ومعجم القبائل العربية لعمر رضا كحالة .

وليس فارسية ـ كما هو الشائع ، وكما جزم المؤلفون المحدثون[٥] دون أن يستقصوا في البحث .

وأصبهان[٦] من امات المدن الاسلامية ، ولها من جمال الطبيعة ما بعث الشعراء على التغني بهوائها وتربتها ، ببساتينها وفاكهتها ، بنهرها زندروذ وعذوبته ، بمتنزهاتها ومجالسها . وقبيل ميلاد الطغرائي قال قائلهم :

يا بقعة هي دار الخلد ، أو خلقت   أنموذجا لنعيم دائم فيها

و « جيّ » أجمل ما في أصفهان :

قد اعتدلت أوقاتها وفصولها   وما استكرهت يقظاتها ومنامها[٧]

* * *

(٥) أمثال هيوار ، نيكلسن ، الزيات ، الهاشمي ، محمود مصطفى (في اعجام الاعلام) ، شفق ، طه الراوي ، الفاخوري ... وقال العباس بن علي بن نورالدين في « نزهة الجليس » ٢ : ٧٧ انه « عجمي أصفهاني » وقال « الشاعر ... الفارسي » .

ولعلهم اعتمدوا في ذلك لقب « الاصفهاني » وهذا غير كاف ، لان العرب استوطنوا أصفهان منذ دخلها الاسلام مبكرا ، ولعلهم اعتمدوا اسم قصيدته « لامية العجم » وما كانت هذه لامية للعجم ـ كما سنرى .

أما عن نسب أمه فقد قال العماد (كما جاء في عود الشباب) : « قال والدي هو نسيبنا من قبل الاحوال » . وقال في نصرة الفترة و ٢٤ ب : « وكان جدي لأمي أمين‌الدين علي المستوفي ... كاتبا لشرف الملك ـ أبي سعد منصور بن محمد مستوفي مملكة بغداد ـ في ريعان عمره وعنفوان أمره . الى أن صار بعده كاتبا لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه » . وتنظر مقدمة خريدة العراق المطبوعة ص ١٣ .

(٦) جاء في معجم البلدان : « أصبهان ... مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ... وأصبهان اسم للاقليم بأسره وكانت مدينتها اولا جيا ثم صارت اليهودية ... وهي من نواحي الجبل في آخر الاقليم الرابع ... صحيحة الهواء نفيسة الجو ... ونهرها ... غاية في الطيب والصحة والعذوبة ... كانت مدينة أصبهان بالموضع المعروف بجي وهو الآن يعرف بشهرستان وبالمدينة ... قال البلاذري وكان فتح أصبهان ورساقيقها في بعض سنة ٢٣ وبعض ٢٤ » .

(٧) المافروخي ص ١١٨ والبيت لابي اسماعيل بن محمد الجرباذقاني .

فمن حلَّ « جيّا » ليس يثني رحالها وأنسي حاجات بأخرى انتظامها
لتشرب مياه الزندروذ اذا اشتكت من السقم نفس ـ كي يخف سقامها[^8]

وقد استوطنت أصبهان قبائل عربية منذ سنوات الفتح الاولى حتى أصبحت ـ على مر الايام ـ بيئة عربية ، ودارا للعلم والادب ، وكانت في العهد البويهي ـ أيام ابن العميد ، مثلا ـ من عواصم المعرفة المهمة[^9] .

ترى ابن « ثلاث » بها يستفيد حديث الرسولِ ويتلو الكتابا
ومن فوقه ، حافظا كاتبا أديبا نجيبا يباري النجابا[^10]

ومن المنتظر جدا أن يكون « الحسين » واحدا من « أبناء الثلاث » هؤلاء . ـ و « الثلاث » مجاز فيه كناية عن التبكير في التحصيل . ومن المنتظر أن يكون قد ألمّ بكل فنون معارف عصره ، ودرس اللغة والادب على شيء من العمق ، ولعله أعجب مبكرا بالمتنبي والشريف الرضي وأحس في نفسه من المطامح ما يقربهما منه ويقربه منهما[^11] .

والتحصيل لا يقتل الشباب في نفوس الشعراء ، وها هو ذا « الحسين » وفد أحب فتاة كانت « المنى » في الكمال والجمال والعفاف ، وقد فاز بها « من بين يأس وخيبة » وبعد أن « غايظ فيها أهل بيته كلهم » ، فآنست منزله وصيَّرته جنة ينسى فيها همومه ، ولكن عمر هذه السعادة الزوجية كان « قصير المدى » ، فما هي الا أن احتضرت وراح الموت « يقبض كفها ويبسطها » « وقد دمعت أجفانها » ، وما هي الا أن أسلمت الروح الى بارئها فغاب الهلال و « ذوى الغصن » وأصبح العرس مأتماً فأضاع الشاعر رشده وفقد اصطباره ، ولم تجدِه الدموع .

[^8]: المافروخي ص ١١٩ .
[^9]: تنظر ـ مثلا ـ يتيمة الدهر للثعالبي ، وتجارب الامم لمسكويه .
[^10]: المافروخي ص ١١٥ .
[^11]: كما يحس ذلك في شعره .

توفيت تاركة رضيعا يزيد في أحزان « الحسين » الذي ظل يحن اليهـا ، وينظم الشعر الصادق في رثائها ، ويجد في زيارة قبرها بعض السلوى :

مضت حين لم أصغر فأجهل قدرها   ولم أعمر الدهر الطويل فأحلما

وأقسم على ألا تسكن نفسه الى سواها ••• ولكن ضرورات الحياة عدلت من رأيه فتزوج ثانية ورزق الولد(١٢) •

ذلك ان شـواغل اخرى كانت متمكنة من نفس أبي اسماعيل ، وتحثه في طريقه لنيل السها • وكان عليه ـ في سبيل ذلك ـ أن يستعين بالمتنفذين من رجال عصره •

ومن أوائل من قصد : « أبو المحاسن معين‌الملك محمد بن فضل‌الله » وهو همام ماجد ملأ « في ديوانه العين والصدرا » •

قصده ، وخدمه ، وظل يسعى للتقرب منه والاستعانة به ، وقد بلغ جانبا من مراده ، وجدد السعي ، فحصـل على خير كثير ، وكان أهم ما يهمه الارتقاء في المناصب ، وتقديمه على سواه واعطاؤه حقه الذي يراه لنفسه ، ويرى انه أفضل من غيره فيه •

يقصده كلما هم بأمر أو ألم به مكروه ، فيجد عنده ما يسره ويسري عنه :

أقول لاحـداث النوائب اذ عدت
علي‌َّ وأبدت حد‌ّ أنيابهـا العصل
اليك ِ فانـــي لا أبالـــي بضيقـة
يفر‌ِّجها رأي الكريم « أبي الفضل »
تعودت منـــه أن ألم‌َّ ببابـــه
شريداً فأغدو عنـه مجتمع الشمل

---

(١٢) هـذه المعلومـات خلاصـة لما جـاء في شعر الطغرائي ص ٨١ـ٨٥ من ديوانه •

ويزيـد في الخطـاب ، ويـكرر الطلب :

أترضى لمثلي أن يعيش مطرحـا
لدى معشر لا يعرفون لـه قدرا
قلوبهـم من جهلهـم في اكنـة
وآذانهـم من غيهـم ملئت وقـرا

★ ★ ★

يغالون بي من غـير علـم وانمـا
يرون مقامي بـين أظهرهم فخرا

★ ★ ★

ومـا أنـا الا كالـكريمة كلمـا
رأت كفؤها في المجد أرخصت المهرا
فهل فيك أن تفتكني من أسارهم
فاني بين القوم من جملة الأسرى

فاستجاب لطلبـه ، وأحسن اليـه ، ومد يد العون ، وقربه وفسح له في مجالي الديوان •

وكان من أفضال معين الملك أن قدم الشاعر الى (نظام الملك) ، وكان التقديم الى نظام الملك فوزا كبيرا ، لان نظام الملك كل شيء في العصر وفي السلطان •

وقد ذكر الطغرائي هذه النعمة ، وقرنها الى غيرها ، وشكر :

جناب « نظام الملك » بحر وردته
على ظمـأ مني وأنت لـه جسر
وأنت الذي أوردتني بعدما انطوى
على غلة صدري وطال بي العسر
وما يهتدي صرف النوائب لامرىء
وأنت له من دون مـا نابه ستر

وتقرب منه وتقرب ، حتى عُد عليه ، ولقي في سبيل ذلك أذى أعدائه وتهديداتهم • ولكنه أصر وأصر :

توعدني في حب آل محمد
وحب « ابن فضل‌الله » قوم فأكثروا

فقلت لهم : لا تكثروا ودعوا دمي
يراق على حبي لهم وهو يهدر

وقد يجري بينه وبين « حاميه » ما يجري ، فيلقى الشاعر اهمالا ويصيبه نكد في معاشه ، فيرسلها مدحا واعترافا وعتابا واستعطافا :

هو الشوق حتى ما تقر المضاجع
وبرح الهوى حتى تضيق الأضالع

★ ★ ★

ولولا معين الملك أخفق طالب
ورُدت على أعقابهن المطامع

★ ★ ★

ألا يا معين الملك دعوة عاتب
على الدهر أوهى مروتيه القوارع
أأقصى ويدعى من سواي وينثني
بربح وفي حظى لديك وضائع
أما أنا أهل للجميل لديكم
حقيق بأن تسدى اليَّ الصنائع

★ ★ ★

أما أنا موزون بكل مؤارب
يكاتم ما في قلبه ويخادع

فظاهـره سـلم لـديك موادع
وباطنـه حـرب عليك منـازع

* * *

وأعظـم مـا بي انني من فضائلي
حرمت ومـا لي غـيرهن ذرائـع
اذا لـم يزدني موردي غير غُلّة
فـلا صـدرت بالواردين المشـارع
وان لم تجد في السحب الا صواعقـا
فلا جادت الدنيـا الغيوث الهوامع
أترضى العلى أني علقت حبا لكم
فخانت قواهـا في يديَّ القواطع
وحاشى مرجيّ نيلك الغمر أن يرى
كقابض مـاء لم تسـعه الاصـابع
فما لك تعصي المجد فيَّ وانمـا
تطاوعـه فيمـا ترى وتتابـع
وما لك تزوي الوجه عني وتنزوي
ووجهك وضـاح ونشرك ضائـع
وكنت ارجى أن أنال بك السـها
فهـا أنا نجمي هابط فيك راجع
أذل لمن دونـي وأعطي مقادتـي
فاغضي وخد الفضل أغبر ضارع
وهـل نافعـي أني أمت بحرمـة
اذا لم يكن من حسن رأيك شـافع

وفي هذه العينية عرض حاله ، وأبان السبب الذي أدى الى ألمه ، وهو في الوقت عينه الدافع الى النظم والباعث عليـه ـ وفيهـا نفس من أنفاس روميـات أبي فراس .

لقد أبعد أبو اسماعيل ، وقرب غيره ، تلك مصيبة المصائب ، وهو الرجل الجدير بالفضل القمين بالجميل ، المتمكن القدير ، بل المخلص الذي لا يضمر لمعين الملك غير الاحترام الحق والاكبار الصادق ، المخلص يؤخر ويقدم عليه من سواه ، من كل منافق مخادع ، ذلك أمر موجع ، وأكثر من موجع .

ولابد من أن يكون سبب هذه الكارثة ، وهذا التغير الذي طرأ من أفاعيل الحاقدين الحاسدين ، ولقد بلغوا مرادهم وجعلوا معين الملك يشيح بوجهه عن شاعره ، وجعلوه ينزل لـه عن منزلتـه ، وأوقعوا « الحسين بن علي » في قلق واضطراب وأسى وحزن ـ ولكنه يأمل على أي حال ، ويسعى الى الاستصلاح ، وله من شعره معين .

وما هي الا أن يرضى المعين ، لانه « كريم » ولان الطغرائي يذكر ويشكر ، وكل ما في أمره أنه يطمح الى أشياء كثيرة ، لا تنتهي .

وبينما كان الطغرائي في عنفوان الامل ، اذ تحل « بحاميه » نكبة عظيمة ويودع الحبس ، ويكاد يقضى على حياته ، فيشتفي الاعداء ، ويفرحون بنجاح السعايات والقالة . فيتألم الطغرائي أشد التألم ، وتصبح نكبة « المعين» نكبته ، لانها أصابت طماحه ، ولمعين الملك في نفسه مكانة سامية ، وفي قلبه منزلة رفيعة ، انه أكثر من محسن ، ثم ان نكبة المعين نكبة الطغرائي ، فقد ألّبت عليه أعداء المعين ، فجاءوا يشمتون به ويسخرون منه ، ويتندرون به ، فيزداد الشاعر ألما الى ألم وحزنا على حزن :

أقول وصرف الدهر يحرق نابه
علي وتستولي على فواقره

وقد صرّدت في جانبي نباله
وأولع بي أنيابه وأظافره

خذيني وجزيني صغارا وابشري
بلحم امرىء لم يُشهد اليوم ناصره

فبعد « ابن فضل‌الله » طأطأ منكبي
يد الدهر مذ أولى عليَّ قوافره
وأثر في عودي النيوب وطالما
تمنع واستعصى عليها مكاسره
واسلمني للنائبات بعاده
كما أسلم العظم المهيض جبائره
وراع جناني نبأة الخطب بعده
ويا ربما هانت عليَّ زماجره
لقد حاز نعماه رجال صفت لهم
أصائل عيش أرمضته هواجره
جزتهم جوازي السوء عن حسناته
ودارت عليهم بالمنون دوائره
ومن يجحد النعمى التي هو ربها
فاني على العلات ، ما عشت ، شاكره
لقد كنت في غيطاء ممطولة الذرى
يبيت عليها النجم وهي تساهره
فلما رماه الدهر أصبحت بعده
بمستن سيل الذل تطغى زواجره

ويلتفت الى المعين نفسه وقد احتواه السجن ، وانقلب عليه الصديق ، وشمت به العدو ، يلتفت اليه يصبره ويعزيه ويشد من عزمه ويوسع في أمله :

نصبراً معين الملك ان عنَّ حادث
فعاقبة الصبر الجميل جميل

★ ★ ★

أما لك بالصديق يوسف اسوة
فتحمل وطء الدهر وهو ثقيل

وما غض منك الحبس والذكر سائر
طليق لـه في الخافقين ذميل

* * *

ولا شينت الدنيا بيومك انما
بقاؤك فيها غرَّةٌ وحجول
ولا متُّ أو ألقى لحظك دولة
وحظ الاعادي رنةٌ وعويل

ثم كان عليه أن يدفع عنه ، ويرد الآثمين ، ويعرب عن مدى اخلاصه :

ومعرض بأبي المحاسن بعدما
عثر الزمان به وغيّر حاله

* * *

قد قلت لما سل فيه لسانه
سفهاً وعارض بالمصون مذاله
مهلا ، فقد أوتيت بسطة جاهه
واجل منه ، وما عثرتَ خصاله

هذا ما نفهمه من شعر الطغرائي نفسه(١٣) ، ونفهم من التاريخ أن معين الملك المذكور هو سيد الرؤساء بن كمال الدولة أبي الرضا فضل‌الله بن محمد صاحب ديوان الانشاء والطغراء وأحد مؤيدي دولة نظام الملك المقربين . وكان سيد الرؤساء ينوب عن أبيه وكان مقبلا مقبولا بلغت مرتبته من اصطفاء السلطان (ألب أرسلان) اياه الى غاية لم يبلغها أنيس ، وزادت هذه المنزلة بعد أن صار ختناً لنظام الملك وتزوج ابنته ... وحدث ـ بعد ذلك ـ أن اتصل بخدمة السلطان ، عميد الدولة ابن بهمينار فتصادق ورئيس الرؤساء على عداوة نظام الملك فنكبا .. وسجنا .. وسملا .. وسقطت منزلة كمال‌الدين ونكبته نكبته ..

---

(١٣) الديوان ص ٤٣ـ٥٤ .

وتولى مؤيد الملك بن نظام الملك مكان كمال الدولة من ديوان الانشاء والطغراء[١٤] .

والطغرائي صادق اللهجة فيما أخبرنا به عن اخلاصه في الدفاع عن سيده والاسى عليه . ولكن الذي نعرفه ايضا أنه مدح نظام الملك وابنه مؤيد الملك ، وقد يكون شطر من هذا المديح مما نظمه في أيام الصفاء وفي أيام عز معين الملك ، ولكن الذي لا شك فيه أن شطرا آخر منه يرجع الى ما بعد النكبة ، واذاً فقد أصلح أمره مع أهل الكلمة « العليا » .

وكما خدم الطغرائي الرؤساء والوزراء ، خدم السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان[١٥] .

ولدى موت ملكشاه عام ١٠٩٢/٤٨٥ واشتداد النزاع بين ولديه بركيارق ومحمد ، كان الطغرائي أقرب الى الثاني[١٦] . وقد اقترن هذا النزاع بتنافس شديد بين صدرين كبيرين هما : مؤيد الملك وزير بركيارق ، ومجد الملك المقرب من أم السلطان ، وقد انضم مؤيد الملك الى محمد واستثاره على حرب أخيه ، فكان أن أخذت أصفهان وقتل مجد الملك عام ٤٩٢ .

ويبدو أن الطغرائي ترجح بين مؤيد الملك ومجد الملك بالمنصب الآكد ، فأغضب ذلك مؤيد الملك ، واضطر الشاعر الى الاعتذار والاعتراف[١٧] ، ولعله نجح في مسعاه ، لاننا نراه يرثي الوزير لدن قتله عام ٤٩٤ بقصيدة طويلة مخلصة[١٨] .

---

(١٤) العماد في النصرة وعنه في الزبدة ص ٥٩ـ٦٠ ، وقد خلط صاحب « أخبار الدولة السلجوقية » ص ٦٨ـ١١٩ بين الكمال وولده .

(١٥) العماد في عود الشباب و ٧٨ أ ، الصفدي في الغيث ١ : ٧ نقلا عن الخريدة .

(١٦) الصفدي ، الغيث ١ : ٨ نقلا عن الخريدة . الذهبي ، العبر (؟) ٢ : ٥٤ ، دول الاسلام ٢٧٢ . ياقوت في الارشاد .

(١٧) الطغرائي في ديوانه المطبوع ص ١٨ـ٢٦ ، ٢٦ـ٣١ ، ٣٤ـ٤٣ ، ٢٧ .

(١٨) الديوان ص ٣١ـ٣٤ ، وقد جاء في الديوان أن تاريخ القتل هو سنة ٤٤٠ وهذا خطأ بين .

ولا نعلم شيئا عما كان يفعله الطغرائي بعد هذا التاريخ ، وربما أمكن القول بأنه كان يشغل أعمالا تتصل بالانشاء والطغراء ، وانه في تاريخ ما عزل عن عمله ٠

وفي عام ٥٠٤هـ[١٩]/١١١٠م رفع الى أحد السلاجقة قصيدة ذكّره فيها بخدماته السابقة وشكا اليه ما ناله من حيف ، وطلب منه منصبا ينقذه من « الضر الذي أودى به » ٠ وربما كان من آثار هذه القصيدة أن أصبح نائبا في ديوان الطغراء الذي كان يشغله الامير العميد في وزارة الخطير[٢٠] ٠

ويخبرنا العماد أنه عندما توفي العميد سنة ٥٠٥/١١١١ « جلس مكانه في ديوان الطغراء وصدر الانشاء الاستاذ أبو اسماعيل الكاتب الاصفهاني ٠ وكان ذا فضل غزير وأدب كثير ، تولاها بالاصالة متصدرا في دست العلاء ٠٠٠ وكان ٠٠٠ اذا أنشأ تروى بطيا وتفكر مليا وغاص في بحر خاطره ثم أتى بالمعاني البديعة والاستعارة الغريبة »[٢١] « ولم يكن للدولتين : السلجوقية والامامية من يضاهيه في الترسل والانشاء »[٢٢] ٠

ولم يدم له عزه هذا ، فقد بدأ المناوئون يسعون به ، واشتدت عليه السعايات ، فحُدَّ نفوذه وكسف جاهه ، وهم بالاعتزال لولا ولعه بالمنصب ، ولولا أمله بتغير الاحوال[٢٣] ٠

وفي سنة ٥٠٥ نفسها ، حل به ـ وهو بمدينة السلام ـ « خطب عظيم » فقد عزل وعلاه من دونه ، وتنكر له أصدقاؤه ، وثقلت عليه الاقامة ببغداد ،

---

(١٩) الصفدي ، غيث ١ : ١٩ (وينظر الديوان ص ٨ـ١٠) ٠

(٢٠ بندراي ص ١١٠ ٠ وقد وزر الخطير عام ٥٠٤ (ينظر ابن الاثير) ٠

(٢١) بنداري ص ١١٠ ومن تمام الخبر « وكان مع ذلك بطيء القلم كليله ، ملتاث الخط عليله ٠٠٠ » (!)

(٢٢) العماد في عود الشباب وفي شرح الصفدي على اللامية ، وينظر الارشاد والوفيات ٠ والمقصود بالدولة الامامية ، دولة الخليفة تمييزا لها عن دولة السلطان ٠

(٢٣) ينظر الديوان ص ٥٩ ٠ ولابد من أن يكون الوزير الخطير بين كبار الحاقدين ٠

فنظم قصيدتين هما من خير ما قال : امتزج فيهما الواقع بالمثال ، والعقل بالقلب ، والحكمة بالطيش ، والحرب بالسلم ، والطموح بالقناعة ، والتواضع بالكبرياء ٠ والقصيدتان هما : اللامية المشهورة :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وبائيــة لا تقــل عنهــا في الاعراب عما اختلج في ذلك القلب الجريح من ألم وسخط ، ومطلعها(٢٤) :

أهاب بــه داعي الهــوى فأجابــا وعاوده نكس الصبـــا فتصــابى

وفيها ثورة على العراق وأهل العراق :

٠٠٠ مللت ثوائي بالعراق وملّني رفائي وكانوا بالعــراق طرابـــا

★ ★ ★

فلا زائر يغشى جنــابي لحاجــة ولا أنا أغشى مــا أقمت جنابــا

★ ★ ★

هو الربــع لم يخلق بنوه أعزةً كرامــاً ولم تنبت قنــاه صلابــا

★ ★ ★

بنو الغدر لمــا فتش البحث عنهم أراك وميضــاً خلبــاً وسرابــا

وعتاب على الخلافة :

فيا عجباً حتى الخلافة مــا رأت لحقي أن أُجزى بــه وأُثابــا
ولم ترع لي نصحي القديم وصحبتي أخوض غماراً أو أروض صعابــا
لعمري لقد ماحضتها النصح باذلا لوسعي وقــد ردت اليَّ منابــا

---

(٢٤) وفي القصيدة هجاء لشخص اسمه « زريق » يبدو أنه كان على حظ من نفوذ ، في دولة الخليفة (؟) ٠

أليس زريق لم يخف أن أمضّه عتاباً وهل يخشى اللئيم عتابا
تصامم عنّي أو تعامى ولم يخف سهاماً من العتب الممض صوابا
وفيت بعهد كان بيني وبينه وراعيته لمـــا شــهدت وغابا
وكذّبت أقوامــاً حكوا أن بينه وبيني مقامــات بمصر خطابا
ولو صح ما يعزى اليه لحلقت بأشلائه ربد النســور سغابا
وكيف يرّجى من يكون ادعاؤه ولاء أمــير المؤمنين كذابـــا

ربد : في الاصل ريد ، ووردت « زريق » و « ربد » في مخطوطة بيروت « فلانا » و « زهم » ٠ ومعنى زهم سمينة ٠

فيا ليت نصحي كان غشاً ، وطاعتي نفاقاً ، وصدقي في الولاء كذابا
كما صار آمالي غروراً وخدمتي هباءاً وسعيي خيبة وتبابا
ويا ليتني دامجت فيهم معاشراً تركتهم شوساً عليَّ غضابا

والابيات صريحة في التعبير عن صلة الطغرائي بالخلافة ، وشدة هذه الصلة ايضا ، وكان ذلك في عهد المستظهر .

وطبيعي أن يعتزم الشاعر الهجرة ويتذكر الوطن ، ولعله نفذ العزم ورحل الى أصفهان ، ولعله أمضى فترة متعزلا ومنصرفا الى الكيمياء والتأليف فيها[٢٥] . وهيهات ، فقد كانت همته ترى في العزلة مقاما على الهوان[٢٦] فعاود السعي واصلاح الامور ، حتى اذا كان عام ٥٠٩ رأينا القاسم بن الحريري يكتب اليه يهنئه بولاية الطغراء بأصبهان[٢٧] .

وفي هذه الايام وحوالي عام ٥١٠ رزق علياً ، ففرح وشكا ، ولم يكن مرد الشكوى الفقر أو العزل وانما الشيخوخة وحرص الآباء :

هذا الصغير الذي وافى على كبري أقرّ عيني ولكن زاد في فكري
وافى وقد أبقت الايام في جسدي ثلما كثلم الليالي دارة القمر

* * *

سبع وخمسون لو مرت على حجر لبان تأثيرها في صفحة الحجر
فزاد حرصي على الدنيا وجدد لي ضناً بمالي واشفاقاً على عمري
أضوي عليه وأخشى أن يعاجلني يومي ولم أقض من ترشيحه وطري
وأشتهي أن أراه وهو مقتبل غض الشباب خضيب الوجه بالشعر
أحيا مآثر آبائي وأشبههم في مجدهم واقتفى في هديه أثري[٢٨]

---

(٢٥) تنظر مخطوطة باريس في الكيمياء .
(٢٦) الديوان ص ٧٩ .
(٢٧) ياقوت ، الارشاد ٦ : ١٨٣ـ١٨٦ (= ١٠٦ : ٢٩ من ط . المأمون) ؟
(٢٥) تنظر مخطوطة باريس في الكيمياء .

وفي عام ٥١١ يتقدم في مدارج الادارة شخص سميرمي[٢٩] فيصبح مستوفيا بل القابض الفعلي على زمام الحكم • وكان السميرمي يبغض الاستاذ أبا اسماعيل ـ « الوحيد الذي بقى من القدماء • ولما لم ير أعداء ـ الطغرائي ـ في فضله مطعنا ولا على علمه من القدح مكمنا ، أشاعوا بينهم أنه ساحر ••• وان مرض السلطان (محمد) ربما كان بسحره ، وانه ان لم يصرف عن تصرفه فلا أمن من أمره ، فبطلوه وعطلوه واعتزلوه وعزلوه »[٣٠] • وعاد الخطير الذي كان وزيرا ، يمد الطغراء بخطه •

ولم يكن رأي الطغرائي بالخطير حسنا ، وهو القائل فيه :

أما الخطير فجبة وعمامة ومنازل مرفوعة الآساس
واذا رجعت الى الكرام فطاعم ما بين أهل المكرمات وكاسي[٣١]

وفي هذه السنة أي في سنة ٥١١ نفسها ، توفى السلطان محمد وتمكن ابنه محمود من السلطنة بعده[٣٢] ، وأناط بالطغرائي ديوان الطغراء والانشاء ، وظل يدبره حتى أمره السلطان بملازمة بيته[٣٣] و « استقر الشهاب أسعد في مكانه وانتصب في منصب ديوانه »[٣٤] • وربما كان هذا من بعض دسائس السميرمي عليه •

ولم تكن مطامح الطغرائي لتستجيب لهذا الامر ، فقد قصد الموصل ـ حيث الملك مسعود بن السلطان محمد ـ وكان صغيرا[٣٥] ، ابن احدى عشرة

---

(٢٩) ينظر البنداري ص ١١٠ ، وسيرد كلام عليه •
(٣٠) بنداري ص ١١٦ •

(٣١) الديوان ص ١٢٨ـ٩ • وفيه اشارة الى بيت الحطيئة المشهور : دع المكارم •••

(٣٢) ينظر الصفدي في الغيث ١ : ٨ ، ١٩ •
(٣٣) التعليقة و ٧٤ ب •
(٣٤) عود الشباب و ٧٨ ب •
(٣٥) عود الشباب و ٧٨ ب ، الصفدي في الغيث ١ : ٨ •

سنة[٣٦] ، ويدبر له الملك في حكم الموصل وأذربيجان أتابكه جيوش بك[٣٧] ، وكان محمد ـ ابن الشاعر ـ يشغل الطغراء[٣٨] في مملكته ، ولم يُخف الشاعر قصده من هذه الرحلة ، فكان أن قال مخاطبا الملك مسعودا :

... ان الهوى والرأي ما لا نحوكم بركائبي ، وهوى الرجال فنون

أبلغ نهايات العلى وسجيتي تأبى التوسط ، والتوسط دون

واسلم لادرك فيك ما أملته ظناً ، وظن الالمعي يقين[٣٩]

وتحقق له بعض هذا العلى اذ استوزره مسعود[٤٠] « وأصبح بالمؤيد مؤيدا وسداده مسددا »[٤١] .

ولكن الطغرائي الذي ظهر في نونيته من الحريصين على سلامة البيت السلجوقي ، ومن دعاة وحدته ، لم يلبث أن غيّر رأيه وانضم الى المؤامرة التي كان يحوكها دبيس بن صدقة المزيدي ـ ملك الحلة ، « ويكاتب ـ بها ـ جيوش بك ويحثه على طلب السلطنة للملك مسعود ويعده المساعدة ... فحسن ـ الطغرائي ـ ما كان دبيس يكاتب به من مخالفة السلطان محمود والخروج عن طاعته[٤٢] .

« وظهر ما هم عليه من ذلك ، فبلغ السلطان محمود الخبر ، فكتب اليهم يخوفهم ان خالفوه ، ويعدهم الاحسان ان أقاموا على طاعته وموافقته ، فلم يصغوا الى قوله ، وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه ، وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس ، وكان ذلك على تفرق من عساكر السلطان محمود ،

---

(٣٦) ابن الاثير ١٠ : ٣٩٦ .

(٣٧) ابن الاثير .

(٣٨) ابن الاثير ١٠ : ٣٩٦ ، التعليقة و ٧٤ ب .

(٣٩) ديوان الطغرائي ص ٨ .

(٤٠) عود الشباب و ٧٨ ب ، ابن الاثير ١٠ : ٣٩٥ سن ٥١٤ ... « بعد أن عزل أبا علي بن عمار صاحب طرابلس سنة ثلاث عشرة » .

(٤١) عود الشباب و ٧٨ ب .

(٤٢) ابن الاثير ١٠ : ٣٩٥ـ٦ ، سن ٥١٤ .

فقوي طمعهم وأسرعوا السير اليه ليلقوه وهو مخف من العساكر ، فاجتمع اليه خمسة عشر ألفا »[٤٣] . والتقوا عنـد « أسد آباذ » قرب همذان[٤٤] . وسط ربيع الاول من ٥١٤ « واقتتلوا بكرة الى آخر النهار ، وكان البرسقي في مقدمة السلطان محمود ، وأبلى يومئذ بلاء حسنا ، فانهزم عسكر مسعود آخر النهار وأسر منهم جماعة من أعيانهم ومقدميهم ، وأسر الاستاذ أبو اسماعيل وزير مسعود[٤٥] ـ « وكان أول من أخذ »[٤٦] « فأخبر الوزير كمـال الملك ـ السميرمي ـ به فقال الشهاب أسعد ـ وكان طغرائيا في ذلك الوقت نيابة عن النصر ـ أخي كمال الملك ـ : « هذا الرجل ملحد » فقـال الوزير : « من يكن ملحدا يستحق أن

---

(٤٣) ابن الاثير ١٠ : ٣٩٥ـ٦ ، سن ٥١٤ .
(٤٤) بنداري ص ١٣٢ (= ص ١٢١ من ط ٢) .
(٤٥) ابن الاثير ... وتحـدث العماد عن المصـاف ١٣٩ أ ـ و١٤٠ من النصرة فقال : « وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة جرى بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود مصاف بقرب همذان وكان النصر فيه للسـلطان ، وذلك أن الملك مسعودا كان مسـلما الى الامير جوشبك وهو أتابكه في الموصل ، وعسكرا الشام وديار بكر في خدمتـه ، وهو ينعت بملك الغرب لحد مملـكته ، فجمـع أتابك جيوش بك جيوشا كثيرة وجمعا جما غفيرا وطمع في أخذ السلطنة وجعل الاستاذ مؤيدالدين الطغرائي وزيرا لمسعود ولم يعلم أنه لا يتمكن فيهـا من مس عود ، فعلم السلطان بجنده وحشره وطي طريق الطمع اليه ونشره و(راعته) جيوش جوشبك فانزعج لهـا وتحرك وأخـذ عدته للحرب فما أبقى ممكنا ولا ترك ، وحكى يومه المسفر ليله المعتكر لما حضر المعترك ، وبرز في حديد لمع شعاعه خرق ستر العجاج وهتك ، ... وجاء جوشبك بمسعود تحت جثره كالقمر في الهالة ، ولمـا اصطف الجمعان ثم كاد أن يجتمع الصفان ودنا أن يلتقي البحران ويلتطم الموجان بصر مسعود بأخيه محمود فحن اليـه وضبطه جوشبك فلم يعرج عليه وصاح : ايجي ايجي ، وهى كلمة بالتركية للاخ الكبير ، فتشوش على جوشبك جميع ما قدمه من التدبير ، وساق مسعود ووقف الى جنب السلطان محمود أخيه وأسلم للنهب والسـلب جميع ما كان معـه من جنوده ومواليه ، فأول من أخذ وزيره ... الطغرائي ...

وينظر البنداري ص ١٣٢ـ١٣٣ وأخبار الدولة السلجوقية ص ٩٦ـ٩٧ .

(٤٦) بنداري ص ١٣٣ .
وتذكر المرآة أنه « هرب يوم الواقعة فأخذه غلمان الوزير ... » .

يقتل »[٤٧] وقد أقام أقواما فشهدوا عند السلطان محمود أن الطغرائي زنديق وانه لا يتدين بدين الاسلام »[٤٨] فقال السلطان : « ... قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده »[٤٩] « وأمر بقتله »[٥٠] فقتل ـ أو ذبح ـ بين يديه صبرا في ربيع الاول[٥١] من عام ٥١٥[٥٢] و « كانت وزارته سنة وشهرا »[٥٣] و « قد

---

(٤٧) بنداري ص ١٣٤ . وفي الطبعة الثانية ص ١٢١ : « يستحق أن يقتل ظلما » ، وليست « ظلما » معقولة في مكانها ، والصحيح ما جاء في البنداري ط ١ « ... ، فقتل ظلما » ومثله في « أخبار الدولة السلجوقية » التي نقلت الخبر نصا كما في البنداري ط ، ١ . ومثله كذلك في ابن خلكان . أما في أصل النصرة و ١٣٩ ب « من يكن ملحدا يستحق قتله ، فقتله ظلما » والبنداري ط ، ١ قريب منه .

(٤٨) المرآة ط . شيكاغو ٨ : ٥٦ .

(٤٩) ابن الاثير ١٠ : ٣٩٦ .

(٥٠) وفي المرآة ٨ : ٥٦ « فعاجله بالقتل » . وفي رواية اخرى ما يشير الى أنه عفا عنه ولكن السميرمي دس عليه فعاد فقتله .

(٥١) العبر مخ . باريس ٢ : و٤٦ سن ٥١٤ .

(٥٢) السنوات التي ترد تاريخا لوفاة الطغرائي هي : ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، نقبل منها الـ ٥١٥ لانها وردت في أكثر المصادر وأوثقها مثل السمعاني في الانساب ، (برواية ابن خلكان ١ : ٢٨٤) ، والعماد في الخريدة على الورقة ٥ ب من مخطوطة باريس ٣٣٣٢ (وعن الخريدة نقل الصفدي ١ : ٨) ، وياقوت ، ارشاد ٥ : ٥٢ (= ط . المأمون ١٠ : ٥٩) ، وأبي الفداء ٢ : ٢٤٧ ، « وهكذا ذكره القاضي شهاب‌الدين » ، ابن جماعة و ٧٥ أ ، حاج خليفة .

ولا نقبل الـ ٥١٣ فقد وردت غير واضحة عند ابن خلكان ١ : ٢٧٨ ، ورواها عاطف بك في « أدبيات اللغة العربية » نقلا عن « زينة الدهر » ، وزينة الدهر مفقود (!) . ومثله الميناوي ص ١٩٤ وصادقي ١٨٨ ـ ووردت في نصرة الفطرة تاريخا للمصاف .

أما الـ ٥١٨ فقد وردت عند ابن خلكان ممرضة بـ « وقيل ... » وقد كفانا كرنكو في دائرة المعارف الاسلامية مؤونة دفعها ، اذ نبه الى أن قتل السميرمي كان عام ٥١٦ . وعجيب أن ترد هذه السنة في مختصر مذيل السمعاني ، مخطوطة ليدن 29 : M2 ص ٤٣ ، ومخطوطة نبذ العجم في المتحفة البريطانية رقم ٣١٦٤ .

أما عام ٥١٤ فهو العام الذي ذكر فيه ابن الاثير تفصيلات مؤامرة جيوش بك ودبيس على السلطان محمود ... ثم المصاف ... وقتل الطغرائي (وينظر =

جاوز الستين سنة »[٥٤] .

ترى ، أحق مـا رووا من أن الطغرائي كان ملحدا ، زنديقـا ، لا يدين بالاسلام ؟! ان ذلك تلفيق لا غبار عليه ، فالطغرائي مسلم دون ريب ، ولو وقفت المسـألة عنـد الالحاد لقلنـا ان مأتاه تشيعه[٥٥] ، وطالما اختلطت كلمة الالحاد – في العصر – بالباطنية والتشيع ، حتى قال الخوانساري : « ان من أقوى الامارات لتشيع هذا الرجل نسبه الالحاد اليه »[٥٦] . وما كان دين الطغرائي يوما مجال شك ، وكثيرا مـا عقب المؤرخون بأنه : « قتل مظلومـا »[٥٧] ، ومنهم من عده « شهيدا »[٥٨] .

ولو صـدرت التهمة من انسـان غـير السميرمي لاستحقت العنـاية ، أما وانها خرجت من رجـل « كان مجاهرا بالظلم والفسوق »[٥٩] فمن العبث الوقوف عندها وأخذها سببا للقتل ، لان هنـاك ما هو أهم وأعقـل ، فلقد كان

= أبو الفداء ٢ : ٢٤٧) وذكرها ابن خلكان مسبوقة بـ « وقيل ... » فمن المحتمل أن يكون عام ٥١٤ عام الاستعداد للمصاف والمصاف ، وليس عام القتل .

(٥٣) ابن الاثير ...

(٥٤) ابن اثير ، ياقوت ، ابن جماعة .

ولا ندري مصير ابن الطغرائي – أبي المؤيد محمد ، كما اننا لا نعرف شيئا عن « علي » الذي رزقه وقـد مرت به الـ ٥٧ ، ولا نعرف شيئا عن اسماعيل ، وان كنا نعلم عن طريق ياقوت : ان أبا اسحاق يحيى بن اسماعيل كان يستمع الى شعر جده ويرويه .

ويذكر سـبط ابن الجوزي ج ٨ سن ٥١٤ : ان الطغرائي هو جد وزير الظاهر غازي بن صلاح الدين رحمه الله واسمه محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين الطغرائي ولقبه نظام الدين » .

وللطغرائي ابن اخت هـو مخلص الدين ، كان كاتب سـنجر (ياقـوت ٦ : ٢٠٨) .

وفي الموصل اليوم مسجد يسمى مسجد الطغرائي (ينظر داود جلبي) .

(٥٥) ديوان الطغرائي ص ٥٢ ، ١٣١ .

(٥٦) روضات ٢٤٨ .

(٥٧) العماد ، ابن الاثير ، ابن خلكان .

(٥٨) العماد في الخريدة (ينظر غيث ١ : ٨ ، عود الشباب و ١٩ أ) ، وأصبح « الشهيد » من بعض ألقابه ، تنظر مخطوطة المتحف البريطاني ٧٥٣٠ .

(٥٩) المرآة ، عيون الاخبار ج ١٢ .

الطغرائي « فاضلا ، واسع الاطلاع ، قديما من بقايا السيوف في المملكة »[٦٠] ، وقد قال منذ عام ٥٠٥ :

ما كنت أوثر أن يمتد بي زمني   حتى أرى دولة الاوغاد والسفل
تقدمتني اناس كان شوطهم   وراء خطوي اذ أمشي على مهل

وفهم السميرمي الابيات على انها تعريض به[٦١] ، وليس ذلك ببعيد جدا ، فقد كان الطغرائي يحتقره ويستصغره[٦٢] .

ولما كان المصاف ، خاف أعداء الطغرائي[٦٣] وخشوا اقبال السلطان عليه[٦٤] فكادوا له ودسوا حتى رموه بالالحاد[٦٥] وعملوا على قتله ، واعتمدوا هذه الحجة[٦٦] ، وما كانوا لينجحوا لو لم تلق دعاوتهم هوى من قلب السلطان محمود الذي كان ينقم على الطغرائي موقفه وتحريضه أخاه عليه[٦٧] .

---

(٦٠) العماد في النصرة وعنة في الزبدة .

(٦١) المرآة ، مخ . باريس ٥٩٦ـ٥٩٩ « ... ويقال ان السميرمي انما قتله لهذه الابيات لانه عرض به » .

(٦٢) المرآة ٨ : ٥٧ (ط . شيكاغو) .

(٦٣) النصرة و ١٣٩ أ ـ ١٤٠ ب .

(٦٤) النصرة و ١٣٩ أ ، مختصر الوفيات و ٣٩ أ .

(٦٥) عيون الاخبار ج ١٢ مخ . اكسفورد .

(٦٦) ابن خلكان .

(٦٧) ذكر سبط ابن الجوزي في المرآة ٨ : ٥٦ (شيكاغو ، وتنظر حيدر آباد) : « وكان السلطان محمود قد نسب خروج أخيه مسعود الى الطغرائي ... حكى ابن السمعاني في الذيل أن السلطان محمودا ... جلس يوما في قصر فيه عصافير فقال : آذتنا هذه العصافير . فقال له خواصه : يأمر السلطان بعض الفراشين يصعد اليها بسلم فيرمي أعشاشها ، أو يأمر بعض الغلمان أن يرميها بالبندق . فقال : ما أستحل ذلك . فقيل له : فكيف استحللت قتل ... الطغرائي مع شيخوخته وفضله ! فقال ما مع الفضل فضول ، يعني أنه أوقع بينه وبين أخيه ... » .

وينظر ابن جماعة و ٧٥ ، وربما فهم منه أن ابن السمعاني أخذها عن عبدالرحمن بن الاخوة ... ويظهر أن ابن النجار قد أعاد روايتها .

ويبدو أن مقتل الطغرائي كان مصدرا للخيال وعرضة للروايات : فقد ذكر ياقوت في الارشاد : « وروي أنه لما عزم السلطان محمود على قتل الطغرائي أمر به أن يشد الى شجرة وأن يقف تجاهه جماعة بالسهام ، وأن يقف انسان خلف شجرة يكتب ما يقول . وقال لاصحاب السهام لا ترموه حتى أشير اليكم فوقفوا =

....

= والسهام مفوقة لرميه فأنشد الطغرائي في تلك الحال :

ولقد أقول لمن يسدد سهمه نحوي وأطراف المنية شرَّع
والموت في لحظـات أحور طرفه دوني وقلبي دونـه يتقطـع
بالله فتش عن فؤادي هل يُرى فيه لغير هوى الأحبة موضع
أهون بـه لو لم يكن في طيّه عهد الحبيب وسره المستودع

فرق له وأمر باطلاقه ، ثم ان الوزير ـ السميرمي ـ أغراه بقتله بعد حين ، فقتله ٠

وقد ذكر الصفدي ايضا هذه الرواية في الغيث ج ١ ص ٨ فقال « أخبرني العـالم العـلامة شمس الدين محمد بن ابراهيم بن سـاعد الانصاري بالقاهرة المحروسة ، أن الطغرائي ، لما عزم أخو مخدومه على قتله أمر به ٠٠٠ الخ » وعلق الصفدي : « قلت ما هذا الاثبات جنان في ثبوت جنون ، لقد أربى هذا في الثبات والشجاعة وعـدم الالتفات الى الحيـاة ونفادهـا والوفاء بشرط المحبة والذكرى لمحبوبه في السـراء والضراء على عنترة العبسي وغيره ممن تبعه من الشـعراء في قوله : ولقد ذكرتك ٠٠٠ الخ ٠

وذكرها ـ على صورة اخرى ابن أبي حجلة المتوفى عام ٧٢٥ في كتابه ديوان الصبابة ص ١١٠ اذ قال : « ٠٠٠ ولـمـا عزم ٠٠٠ على قتله بعـد أن قيل له عنه أشياء من جملتها أنه يحب المملوك الفلاني من مماليك السلطان ممن كان السلطان يحبه ويميل اليه ٠٠ وأخبرني من حكى هـذه الحكاية من أهل الادب ان أول من فوق اليـه السـهم المملوك المتيم هو بحبـه فأنشـد في تلك الحـالة ٠٠٠ ولقد أقول ٠٠٠ » ٠

ورواها الشيخ داود الانطاكي (من أعيـان القرن الحادي عشر) فقال في كتابه « تزيين الاسواق بتفصيل أحوال العشاق » ٢١٨ـ٢١٩ « ٠٠٠ وامام هذا الشأن ـ أي الملازمة على ذكر المحبوب عند نزول البلاء ـ والتفرد في هذا الميدان ، الطغرائي ٠ قيل انه علق مملوكا لمؤيدالدين [الصحيح : للسلطان محمود ٠٠٠] كان يهواه فحين بلغه نقم على الطغرائي فأراد قتله ٠

يفت في عضد هذه الروايات تأخر عهدها وما فيها من « تمريض » ومن عبث في ذكر الاسباب والمسببات ومن جهل بشيخوخة الطغرائي ومطامحه ومن اعتباط في اطلاق الاحكام وسخاء في بذل الاعجاب ٠

ومن المناسب أن نذكر أن الابيـات : ولقد أقول ٠٠٠ قد نظمت قبل هذه الحادثة ، فقد جاء على الورقة ٧٥ من تعليقة ابن جماعة عن ابن أبي روح الهروي قال حدثنـا أبو سعيد السـمعاني قال أنشـدنا أبو طاهر محمد العقيلي [عن] محمد بن منصور العروضي قال أنشدنا الاسـتاذ أبو اسماعيل الليثي لنفسه : ولقد أقول ٠٠٠ » ٠

آثاره

للطغرائي ديوان شعر جمعه بنفسه ، وسمعه منه وقرأه عليه سديد الدولة ابن الانباري[٦٨] وأبو بكر عبدالله بن علي المارستاني ، وروى عنه مقتطفات وقصائد الامير أسامة بن منقذ وابن الشجري وابن الاخوة والامام محمد ابن الهيثم[٦٩] .

وقد وصف السمعاني الديوان بأنه جيد ، وقال : سبط ابن الجوزي انه مشهور . وما زالت منه نسخ خطية في أكثر مكتبات العالم[٧٠] .

ويمكن تبويب ما وقفنا عليه من مخطوطات هذا الديوان على عائلتين ـ ليس بينهما فرق كبير ـ .

أ ـ النسخ التي تتبع نظام حروف الهجاء للقوافي ، ومنها :

١ ـ مخطوطة القاهرة ، رقم ٧٩١٧ ، أدب ـ دار الكتب .

٢ ـ مخطوطة لندن ، رقم ٧٥٥٨ ، (المتحف البريطاني) .

وتبدأ مقدمة هذه العائلة بـ « كتب الاجل مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين ابن علي بن محمد ـ رحمه الله ـ الى بعض من التمس منه أشعاره : قد انتهيت الى ما اقترحه الشيخ الامام ـ أدام الله نعمته ، وتحملت في جنب رضاه التعرض لنقد النقاد ، وخف عليَّ في الامتثال له التكشف لجهابذة الكلام ... وأثبت طرفا مما علق بحفظي من المقاطيع المتفرقة والقصائد ، على تهافت أجزائها واختلاف نظامها وقلة التمرن لها وفتور الرغبة في الاشتغال بتهذيبها ... » .

---

(٦٨) الصفدي في الوافي ٣ : ٢٧٩ .

(٦٩) تنظر التعليقة ، ومختصر الوفيات و ٣٩ ب ، والصفدي في الغيث ١ : ٧ .

(٧٠) ينظر بروكلمان ودائرة المعارف الاسلامية وقائمة المصادر من هذا الكتاب .

ب ــ النسخ التي كادت تكون مرتبة حسب الموضوعات : المديح ، الشكوى ، الرثاء ، الغزل ، الوصف ... الخ . ومنها :

١ ــ مخطوطة راغب باشا المحفوظة بمكتبة استانبول ، رقم ١١٠٧ .

٢ ــ مخطوطة القاهرة ، رقم ١٥٢٨ ، أدب ــ دار الكتب .

٣ ــ مخطوطة الاسكوريال باسبانيا ، رقم ٣٠٤ .

٤ ــ مخطوطة الجامعة الاميركية في بيروت Ms. 892.71 T64d A

ومقدمة هذه العائلة تشبه مقدمة العائلة الاولى (دون أن تحتوي على السطر الاول منها) . ولكنها تضم القصيدة النونية التي مدح الشاعر بها الملك مسعودا الذي استوزره عام ٥١٣ :

نظري الى لمع الوميض حنين   وتنفسي لصبا الاصيل أنين

وفي هذا ما يدل على أن ديوان هذه العائلة (ب) ، جمع في أقل تقدير ــ بعد هذا التاريخ . وربما كان في ذلك ما يؤيد الحاج خليفة الذي قال ــ وهو يتحدث عن ديوان الطغرائي ــ : « جمعه بعض أحفاده » .

وتضم نسخ هذه العائلة قصيدة الطغرائي التي قالها أيام نكبة معين الملك : « اقول وصرف الدهر ... » .

وفي نسخ هذه العائلة (ب) « عدا نسخة بيروت » نجد مقطوعة من خمسة أبيات غزلية مطلعها :

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه   فقد كاد رياه يطير بلبه[٧١]

وحشر المقطوعة خطأ لا غبار عليه ، لانها من شعر ابن الخياط[٧٢] ، على رأس قصيدة طويلة[٧٣] قال عنها ابن خلكان : لو لم يكن له الاها لكفاه[٧٤] .

---

(٧١) ديوان الطغرائي المطبوع ص ٩٧ .

(٧٢) أبو عبدالله أحمد بن محمد ... الدمشقي التغلبي ، ولد عام ٤٥٠ بدمشق وتوفي بها عام ٥١٧ (ينظر ابن خلكان ١ : ٧٩ــ٨٠ ، وتنظر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ٣٣) ، طبع ديوانه في النجف سنة ١٣٤٣ ، ثم بطبعة جديدة محققة بدمشق تتقدمها هذه الدراسة التي نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي .

(٧٣) ديوان ابن الخياط ص ٧ــ١٣ . من ط . النجف ، ٧١ــ٧٧ من ط . دمشق .

(٧٤) ابن خلكان ١ : ٧٩ .

وقد طبع ديوان الطغرائي عام ١٣٠٠ في القسطنطينية ـ بمطبعة الجوائب[٧٥] ، ويمكن القول بأن هذا الطبع قد تم على نسخة من مخطوطات العائلة (ب) ـ وان جاءت هذه الطبعة خالية من أبيات الغزل الغلماني التي تضمنتها المخطوطات[٧٦] •

وعلى الرغم من الخدمة التي قدمتها هذه الطبعة فانها خلو من كل مميزات النشر الحديث وما يقتضيه من دقة وتحقيق ومقابلة نسخ وفهارس ، أما التصحيف فحدث ولا حرج •

ولا تضم نسخ الدواوين المنظومة التي سماها الطغرائي « المقاطيع في الصنعة » (أي صنعة الكيمياء) التي أشار اليها الصفدي[٧٧] ، وتحتفظ مكتبة كلية الآداب من جامعة القاهرة بنسخة مخطوطة لها • ولم تضم الدواوين كذلك ، الابيات التي صدر بها الطغرائي جوابه على تهنئة الحريري له عام ٥٠٩[٧٨] •

وأشهر قصائد الطغرائي هي اللامية التي مطلعها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل — وحلية الفضل زانتني لدى العطل

وتقع في (٥٩) بيتا من البحر البسيط ، نظمها ـ كما رأينا ـ ببغداد يشكو ويصف حاله عام ٥٠٥ وقد جرد من منصبه • وأفرغ فيها كل ما كان يخامره من مشاعر وأفكار • ولا شك في انه أعجب بها ، وارتاح اليها ، وقرأها واستعادها • وظل يرويها للمقربين أمثال : الشهرزوري وابن الشجري وابن الاخوة • والمعجبون حوله يستعيدونها و« يتراوونها » ، وقد ذكرها نصا العماد وياقوت وابن خلكان وآخرون ، وأفاض الصفدي في شرحها وأطال •

---

(٧٥) وليس هناك أي دليل على احتمال تأييد محمد عبدالغني حسن (ص ١٤٩) من أنه طبع في الشام • ولا صحة لقول المرصفي ٢ : ٢٢٥ ، ان ديوانه طبع غير مرة • ويعد المؤلف طبعة جديدة لديوان الطغرائي •

(٧٦) لعل الناشر طواها عمدا لمعنى أخلاقي •

(٧٧) الصفدى ، الغيث ١ : ٨ ، وجاء في أعيان الشيعة ج ٢٧ ، مطبعة الاتقان ، ١٩٤٨ ص ٨٢ « ••• وينسب اليه أشعار كثيرة في مدح أهل البيت (ع) لا توجد في ديوانه وكأنها سقطت منه • » (؟)

(٧٨) ياقوت في الارشاد (ترجمة القاسم بن محمد بن الحريري) •

كان الطغرائي شاعرا كاتبا « حسن الكتابة ومالك قلم الانشاء . ولم يكن للدولتين السلجوقية والامامية من يضاهيه في الترسل[٧٩] . ولم يصل الينا من « نثر الدراري والدرر » الا رسالة واحدة هي ـ فيما نقل ياقوت ـ جوابه على تهنئة ابن الحريري ، ومنها :

« وصلني ... كتاب اتسم بالمكرمة الغراء وابتسم عن التكرمة العذراء ، فخلته كتاب الامان من الزمان ، وتلقيته كما يتلقى الانسان صحيفة الاحسان ، وقابلت ما أودع من البر والطول المبر بالشكر الذي هو جهد المقل ونسك المستقل ، ووجدت ما ألحف من التجميل واتحف عن الجميل ما كانت أطماعي تتوق اليه وآمالي تحوم حواليه ... » .

والرسالة بادية التكلف لما يسمونه بالبديع ولاسيما الجناس والسجع ، وكان هذا التكلف ذوق العصر ونمط كتابته الرفيع وكأنه الغاية الاولى ، أما الغرض الذي حررت من أجله الرسالة فليس بالمهم ولا بأس في أن يتوارى خلف التزاويق ، حتى انك لا تكاد تعرف أهي من الطغرائي الى الحريري أم انها من الحريري الى الطغرائي ، ولعل الأولى بها أن تكون صادرة عن الحريري .

ولم يقف الطغرائي عند الشعر والنثر ، فقد كان واسع المعرفة ، مبرزا في مختلف فنونها ، وقد كرس غير قليل من همه للكيمياء[٨٠] ، واشتغل فيها

---

(٧٩) الصفدي عن العماد ١ : ٧ ، وينظر ابن خلكان ، وقد مرت معنا ، وينظر الارشاد ، وعود الشباب و ٧٨ ، وتتمة الخبر « ... سوى أمين الملك أبي نصر بن أبي حفص من أهل أصفهان لتقدمه ، لكن برز عليه في فنون العلم وحسن الاستعارة في النثر والنظم ، سلك المذهب وأبدع المعنى المهذب ... » ومنه « تشرفت به الدولة السلجقية وتشوفت اليه المملكة الايوبية » . وجاء في عود الشباب عن أمين الملك ... انه « كان من محاسن الزمان و ... كان منشيء الدولة السلجقية حين غصنها وريق ... ذكره الباخرزي في الدمية ... » .

(٨٠) قال ابن خلدون : علم الكيمياء : علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل الى ذلك ... وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الاكسير وأنه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة ... فيعود ذهبا ابريزا ...

حتى عد من شيوخها وأئمتها[٨١] ، وظل المعنيون بهذا « العلم » يذكرونه باعجاب وتمجيد . روى العماد قال « حدثني الامام محمد بن الهيثم بأصفهان عنه أنه كشف بذكائه سر الكيمياء المرموز واستخرج معماه المكنوز »[٨٢] . وهذه الرواية تنسجم وما ادعاه الطغرائي في شعره[٨٣] .

وله في الكيمياء « تصانيف وهي معتبرة عند أربابها منها كتاب مفاتيح الرحمة وجامع الاسرار وكتاب مصابيح الحكمة وكتاب تراكيب الانوار ، ورسالة وسمها بذات الفوائد وكتاب حقائق الاستشهادات بيّن فيه اثبات صناعة الكيمياء والرد على ابن سينا في ابطالها بمقدمات من كتاب الشفاء »[٨٤] .

والطغرائي فخور بمكانته من هذا العلم ، وقد قال في مقدمة أحد مؤلفاته في الكيمياء : « ولما علمت أن العلم أحرص شيء الى نفسي تحققت أن لا يناله أحد من غير أهله ولا أبناء جنسه فألفت في ذلك كتبا لم يسمح الدهر بمثلها . ولما فرغت منها عنّ لي أن أجعل كتابا في ذلك جامعا لذلك الفن على العموم والشمول

---

(٨١) ابن خلدون في المقدمة ، علم الكيمياء ص ٥٠٤ من المقدمة ، مط . مصطفى محمد .

(٨٢) ياقوت في الارشاد ، الصفدي في الغيث ، العماد في مختصر علي رضائي للخريدة (عود الشباب و ٧٨ ب) .

(٨٣) الديوان ص ٧٩ .

(٨٤) ياقوت ، الصفدي ، وينظر فهرس المكتبة الوطنية بباريس وفهرس مكتبات ايران وغيرهما . وفي أسماء هذه الكتب اختلاف ، ويفهم من مخطوطة مكتبة مجلس ملي بطهران ، رقم ٧٣٠ ومن مقدمة المؤلف نفسه ان « مفاتيح الرحمة وأسرار الحكمة كتاب واحد : الاول جزؤه الاول والثاني جزؤه الثاني . وكتب على غلاف المخطوطة أن من مصنفات الطغرائي : كتاب الاحسان في علم الميزان وكتاب نهج القويم وكتاب صحيفة ناموس الحكمي في تهذيب أحجار السبعة ، وكتاب أفعال الطبيعة وأسرار الخليقة . وله كتاب الارشاد الى الاولاد (وهو رسالة بثلاث صفحات) . ولا يبعد أن تكون لكتبه نسخ اخرى في المكتات ، ولا يبعد أن تكون له كتب اخرى في الكيمياء .

وقال ابن خلدون في المقدمة ، الكيمياء : ص ٥٠٤ وامام المدونين فيها جابر ابن حيان ... والطغرائي من حكماء المشرق المتأخرين له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء . وتنظر ص ٥٢٥ .

ومحيطا بحل ما عز على الاوائل ذكره ، واني أعلم قطعا أني لو كنت في زمن افلاطون ورلسيوس واطلع على ما فعلته ونبهت عليه وأظهرته للعالم من هذا الفن في هذا الكتاب لما كان يسع أحدهم الا ذبحي ولتحيل على اخراجي من هذا العالم بقتلي ، ولكني استغفرت الله تعالى مرارا وأنا أنظر •• الاذن والارادة لابراز هذا الكتاب ••• وسميته « بمفاتيح الرحمة وأسرار الحكمة » ليكون بما أودعته فيه من العلوم وأوضحته مطابقا فحواه لاسمه ، ورتبته على مقدمة وسبعة أبواب » •

وقد ظلت هذه المؤلفات مصدرا مهما للمعنيين بهذا « العلم » يدرسونها ويتناسخونها معجبين ممجدين مؤلفها « الحكيم البارع والفيلسوف الفاضل ، والمحقق العامل » • وأهل الصنعة أكثر من تمسك بلقب « الشهيد » وكأنهم يضيفون اليه بذلك اكبارا الى اكبار • أما غيرهم فيقولون : ان تصانيفه في الكيمياء « قد ضيعت من الناس أموالا كثيرة »[٨٥] •

(٨٥) الكامل وينظر الارشاد والجزء ٢٧ من أعيان الشيعة •

شعر الطغرائي

طرق الطغرائي كل أغراض الشعر العربي التقليدي من مديح وفخر ورثاء •• وغزل •• ووصف وحكمة • وله في كل منها مشاركة بالاتجاهات العامة التي كانت تسير عليها ، واختلاف يميزه عن الآخرين بما يعتمده من عناصر ذاتية •••

وقد جهز الطغرائي نفسه بالمواد الاولية للشاعر ، وطفق يعدها اعدادا عاما فتعلم ودرس وقرأ وحفظ •• وعمل ، اذ زاول النظم منذ صباه وبدا متمكنا من اللغة والعروض والرصف ، وطرق هذا الغرض أو ذاك من مدح وأخوانيات ونسيب •• كمن ينتظر حادثة تهزه وتجري الدماء في الشرايين •• ويحب ، ويعترض ذووه هذا الحب ، ولكنه استمر وثابر واجتهد حتى تزوج الفتاة التي ملكت عليه أقطار نفسه وعاش معها أسعد عيش •

ولكن ، ما يكاد يمر عام حتى تموت الزوجة الشابة فيبكي الزوج « الشاب » مر البكاء ، ويحزن أشد الحزن ، ويفعل ما يلومه عصره أن يفعله من جزع وبكاء ولطم وتمزيق ثياب •• ورثاً •

وتظل صورتها وهي تصارع الموت قائمة في نفسه بتفصيلاتها وبموجعات مشاهدها :

ولم أنسها والموت يقبض كفها
ويبسطها والعين ترنو وتطرق

وقد دمعت أجفانها فوق خدها
جنى نرجس فيه الندى يترقرق

وحل من المقدور ما كنت أتقي
وحم من المحذور ما كنت أفرق

وقيــــل فراق لا تلاقي بعـــــده
ولا زاد الا حســـرة وتحـــــرق
فلو أن نفساً قبل محتــوم يومهــا
قضت حسرات كانت النفس تزهق
هلال نوى من قبــل أن تم نوره .
وغصن ذوى فينانــه وهــو مورق

يسليه النـــاس فلا يسلو ، ولا يجــد العزاء الا بقبرهــا ، يزوره ويبكي عنــده ويقبله ويلصقه بصــدره فينسى الدنيــا ويجد نفسه في حضرة حبيبته : يكلمها وتكلمه :

ولم يبق ممــا بيننــا غــير حثوة
عــلى العين تحثى أو على العين تطبق
أحن اليهــا ان تراخى مزارهــــا
وأبكي عليهــــا ان تدانى وأشهق
وأبلس حتى مــا أبــين كأنمــــــا
تدور بي الارض الفضاء وأصعق
وألصقهــا طورا بصــدري فأشتفي
وأمســـــحها حينـــا بـكفي فتعبــق
ومــا زرتهـــا الا توهمت أنهــــا
بثوبي من وجــدي بهــــا تتعلق
وأحسبهــا والحجب بيني وبينهــــا
تعي من وراء الترب قولي فتنطـق

وهذا وفاء وانسانية أدى فيهما صدق العاطفة الى صدق التصور .

ويظل الشاعر يعيد ويبــدي في أفكاره وأخبــاره ، وهي تتوارد عليه بين لحظة ولحظة مفردة حينــا ، ومجتمعة حينــا ، فلا غرو في أن تحتوي القصيــدة

الواحـدة أكثر مـن معنى ، ولا غرو في أن يتـكرر هــذا المعنى في أكثر مـن قصيدة ومقطوعة •

وفي رائية رائعة يبكي ويبكي حتى يستقل الدموع :

••• أعينيَّ جودا بالدماء وأسعدا
فقد جلّ قدر الرزء عن عبرة تجري
أذم جفـوني أن تضن بذخرهـــا
وأمقت قلبي وهو يهدأ في صدري

لقد وقع الموت عليه وقع الصاعقة ، وما كان لمثله بد من البكاء ، وما كان لمثله بد من أن يرى المصاب أسمى وأجل من أن توفيه الدموع • أما اذا أغفت الجفون ، وهدأ الصدر لحظة ، ثار وغضب وطرد رُسلَ السلو شر طردة •

وتعاوده الذكريات ـ لانه لم يفقد زوجة حسب ، انما فقد زوجة و« حبيبة » هي المثل الاعلى للجمال والكمال :

بنفسي من غاليت فيهـــا بمهجتي
وجاهي وما حازت يداي من الوفر
وغايظت فيهـــا أهـل بيتي فكلهم
بعيد الرضى يطوي الضلوع على غمر
وفزت بهـــا من بين يأس وخيبة
كما استخرج الغواص لؤلؤة البحر
فجاءت كما جاء المنى واشتهى الهوى
كمـالا ونبـلا في عفاف وفي ستر
فصارت يدي ملأى وعيني قريرة
بها كيفما أصبحت في اليسر والعسر

وفي هــذه الابيات الخمسة خلاصة وافية كافية لقصة ختمتهـا يد الاقدار فجأة فكانت مأساة روعت قلب الشاعر وأبكته دما •• وانتهى به الحزن والسخط

الى أن يقول :

ألا ليتنـا لم نصطحب عمر ليـلة
ولم نجتمع من قبل هذا على قدر

وهذه أمنية عجيبة من رجل حزين كل الحزن ، محب كل الحب .. فكيف يجتمع الحب وتمنى البعـاد ، وكيف يجتمع حبـه وتمنيه ألا يكون ؟! الجواب سهل . فالامنية ساذجة ، وعمقهـا في سذاجتهـا ، وهي حالة تعتري الاطفال ، وتعتري الامهات ، وتعتري الاحبة ، ويقع التمني عفوا ، ولا يقصد به الى الحقيقة ، ومن البلادة أن يفهم على ظاهره ، وأقل ما يكذبه أبيات قبله وأبيات بعده ، فهو تمن يخرج الى اقرار جسامة المصاب وشدة البلاء ... وشدة السعادة التي كان عليها يوم هيأتها زوجة صالحة ، طيبة .. محبة محبوبة :

بنا أنت من مهجورة لم أرد لهـا
فراقا ولم تطو الضلوع على هجر
طلعت طلوع البـدر ليـلة تمه
وفقت كمـا أربى على الانجم الزهر
وآنسـتنا حتى اذا مـا بهرتنـا
سنىً وسناءً ، غبت غيبوبة البـدر
وقـد كان ربعي آهـلا بك مـدة
أحن اليـه حنـة الطـير للوكـر
وآوي اليـه وهو روضـة جنـة
بدائعهـا يختلن في حـلل حمـر
فمذ بنت عنـه صار أوحش من لظى
وأضيق من قبر وأجدب من قفر

ويجن جنونه ، ويبحث في الاسباب والعلل ، ويسأل لماذا ؟ وكيف ؟ فيجد الجواب حاضرا :

وما كنت الا نعمة الله لم تدم
علي لعجزي عن قيامي بالشكر

وهو تعليل أدبي شعري ، ولكنه يرضى صاحبه ويرضى حيرته الطاغية ٠
ولاسيما ان غيابها عن العين لم يمنع حضورها في القلب :

برغمي خلا ربعي وأسكنت خاطري
وغيبت عن عيني وأحضرت في فكري

ولئن فقدها في الدار الدنيا فانه ليدعو الله مخلصا أن يجمع الشمل ويجعلها من نصيبه في الدار الآخرة ٠

وهكذا تكون هذه الرائية تسجيلا شعريا للحالات النفسية التي اعترت الشاعر المفجوع ٠ وكان الحزن العميق مسيطرا ٠٠ بدأ عنيفا ، وكاد يغير المجرى عندما تذكر الشاعر أيام ما قبل الزواج وأيام ما بعده ، ولو استمر في هذه الذكريات العذاب لنسي مصابه ، وهيهات ، ولا أدل على بعد ذلك من عودته الى البكاء والسهر ، ومن تمنيه الجهل بها وتمنيه الموت من أجلها ، وكاد اليأس يقتله لو لم تأخذ ذكرى أيام الحياة الزوجية السعيدة طريقها الى مخيلته فتشغله لحظات اخرى عن حاضره وتعمل على الرجوع به الى الماضي القريب ، ولكن هذا الماضي لم يلبث حتى جسم له فداحة الحاضر وفداحة الخسارة ، وكاد يبدأ مناحة جديدة لو لم تكن الموجة قد قاربت الشاطىء فهدأ عنفوانها فنهض العقل يعزى ويخفف ، حتى أحس الشاعر أنه يقترب من السلو ، ورأى نفسه ملزما بتبرير هذا السلو ، وقد وجده في الضرورات :

فان سكنت نفسي الى سكن لها
سواك مدى عمري فقد بؤت بالكفر

وان أسل يوما عنك ، أسل ضرورة
والا فاني عن قريب على الاثر

ومـا ان مرت الايـام حتى غلب العقـل ، وتغلبت المبررات ، فـاذا بصاحبنا يتزوج ٠

اي والله ! تزوج وأنجب الولد ! ولا يكاد المرء يسمع هـذه النتيجة حتى يأسف ، وقد يضحك ، وقد يتهم الرجل بالكذب وافتعال الحزن ٠٠ وهذا المرء الذي يضحك ويتهم ،يعتقد أنه خير من الطغرائي ، ويريد من الطغرائي ما يريده للرجل المثالي في الثبات على الحب والدوام على الذكرى ، ويتصور أن حالات النفس الانسانية مطردة ٠٠ ولا أخاله مصيبا في كل ذلك ٠ بل ان زواج الطغرائي لا يعني حتما السلو التام والنسيان المطلق ٠

ان زواجه في هـذه المرة زواج فقط ، بينما كان في المرة الاولى زواجـا وحبا ـ والفرق بيّن[1] ٠

ولهذا الزواج ضروراته ، ولنا أن نتصور من هذه الضرورات : البيت الذي لابد لمثله وهو على ما كان عليه ، وعلى ما يود أن يكون عليه ، فهو رجل مجتمع

---

(١) ثم كم هم الشعراء الذين رثوا زوجاتهم في الادب العربي ؟! قليلون ، وقد يكون أشهرهم جرير صاحب :

لولا الحياء لهـا جني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

وها أنت ذا تراها مبدوءة بـ « لولا » ، أما الطغرائي فقد هاجه الاستعبار فبكى وزار القبر ٠٠٠ ثم ما الذي دفع جريرا الى أن ينسى زوجته بعد الابيـات القليلة الاولى من قصيدته ليخصص الباقي ـ وهو كثير جـدا ـ لشتم الفرزدق وشتم جعثن !

أما الفرزدق فموقفه أمرّ وأدهى ويكفي ان النساء بكت امرأته بشعر جرير ٠ وقـد أجاد مسـلم بن الوليـد البكاء وأخلص فيـه الا أنه لم يختص اختصاص الطغرائي ، وانه فقد زوجته في شيخوخته وأخريات أيامه ٠٠٠ أما ابن الزيات فلا يبلغ مبلغ الطغرائي وكان ألمه « للطفل » أكثر من ألمه للمرأة الفقيد ٠

ويطلع العصر الحديث ، عصر انصاف المرأة وتحريرهـا ، ويقول الشعراء رثاء : فللبارودي قصيـدة ، وللجواهري قصيـدة ٠ ولعزيز أباظة ديوان ولعبد الرحمن صدقي ديوان ٠٠٠ والعواطف في كل هذه الاشعار صادقة نبيلة ، ولكن الطغرائي يحتفظ بمكانه المرموق في بكاء الزوجات ٠

ومما يذكر أن أكثر الشعراء المعاصرين لم يلبثوا أن تزوجوا ثانية ٠

يزور ويزار ، أو انه ـ في أقل تقدير ـ يريد أن يزور ويزار ، ويريد أن يشغل مكانا في سياسة عصره ، وقد حدثته نفسه بأشياء كثيرة من شؤون المجد ، فلابد له من أن يشغل ديوانا ، ولابد من أن ينال وزارة •• أو أكثر • ومن المحتمل أن يكون هذا الطماح وهذه الاشياء الكثيرة التي ستلقي به في خضم الحياة السياسية بعض ما أنساه وقع مصابه بوفاة زوجه •

ولئن كان المديح مذهبا بارزا في الشعر العربي ، ومذهبا سائدا في العصر السلجوقي ، ان دواعيه أشد لدى شاعر يتخذه وسيلة لغاية أبعد ، هي طماحه الى التقدم في مدارج مناصب الدولة ، وقد كان هذا الطماح مفتاح شخصية الشاعر ، وانك اذا تصفحت الديوان لا تكاد تجد مدحا من أجل المال أو اللباس أو الارض كما تجد في أكثر دواوين معاصريه • واذا دل هذا على « الحال الحسنة » فانه ليدل كذلك ، وأكثر من ذلك ، على أن مطلب الطغرائي في الحياة أكبر من الشبع والري •

أحس « الحسين » بهذه الرغبة ملحة في نفسه ، وآمن بأن له ما يحققها ، من علم و « بيت » ، يساعده في ذلك عصر ـ على اضطرابه ولاضطرابه ـ يفتح صدره لمن يسعى في الدخول الى قلبه • ويسهل مهمته كونه من أصبهان ، وأصبهان مقر خطير من مواطن السلطة ، حتى لتكاد تكون عاصمة السلطنة ـ ان لم تكنها ـ واذاً فهو قريب من مبتغاه •

وها هوذا يبدأ ـ كما يجب أن يبدأ أمثاله ـ بالتقرب من معين الملك فضل الله ، ويفلح •

والتاريخ ـ كما رأينا ـ بخيل تمام البخل في الحديث عن معين الملك ، ولكن الطغرائي جلا لنا منزلة هذا الرجل ، وبين نفوذه وسلطانه وخلقه ، وذكر انه يستطيع أن يقدم ويؤخر في الدولة ، وان الناس يسعون للتقرب منه ، ومنهم من ينافقه ومنهم من يدعي حبه ويصنع له بالولاء •

وفي طيات صلة الطغرائي بمعين الملك ، وثنايا قصيدة قالها لمناسبة من أطوار هذه الصلة وصف لنا « المعين » وصفاً يجعل منه وثيقة تاريخية نادرة :

بعيد مناط الهم ، أروع لم يكن
لتملأ جنبيه الخطوب الروائع
خفي مدرب الكيد لا يستشفه
لبيب ولا يفضي اليه مخادع
ولو شذّ عن حكم المقادير كائن
لما درت الاقدار ما هو صانع
طلوب لغايات المكارم مجمع
على الهم ثبت الرأي يقظان جامع
صؤول اذا ما الخوف أرعد أهله
قؤول اذا التفت عليه المجامع
اذا لاح فالابصار حيرى شواخص
وان صال فالاعناق ميل خواضع
فلا يشغل الابصار الا بهاؤه
ولا ترعوي الا اليه المسامع
يلاحظ أعقاب الامور كأنما
يداهيه من دون الغيوب طلائع
فلا صدره في أزمة الخطب ضيق
ولا عرفه عن طالب الفضل شاسع

وفي هذه الابيات موجز بليغ في تحديد ابعاد شخصية معين الملك وبيان أهميته وتعيين مزاياه في حالة الرضى والغضب ، الحرب والسلم ، ثم انه داهية ـ مما هو شرط لابد منه للسياسي ـ لاسيما في زمانه .

ولا يمكن أن تكون هذه الابيات كلاما مجردا وانها مدحة مادح ، لما فيها من دلائل الصدق وعلامات « الحرارة » والمقنعات التي تبين ان الشاعر يصف ما وقعت عليه عينه وامتلأت به نفسه ، ولقد رأى رجلا جمع أمثل صفات « الشخصية

البارزة » المطلوبة آنذاك •

ان هذه الابيات قطعة حية ، ترى الى جوارهـا الاسطر التي رواها التاريخ باهتة ضئيلة ، حتى اذا قال التاريخ ان معين الملك أو سيد الرؤساء ـ كما يسميه ـ قد « بلغت مرتبته من اصطفاء السلطان اياه الى غاية لم يبلغها أنيس » عرفنا قيمة الوثيقة التي قدمها الطغرائي ، وعلمنا انه لم يكذب وانما فصل ما أوجزه التاريخ ، واستدرك على ما فاته •

ويقدمـه معين الملك الى نظام الملك ـ أكبر صدور العصر • فيمدح المعين ويمدح النظام •

وعندمـا سجن معين الملك أخلص له وأقام على ذكره ، فقـد حزن حزنا شديدا ، وذاد عنه وأقام يعزيه ويصف تخلي الناس عنه وشماتة الاعداء به •

ويستعيد صورا من مجده ويروي طرفا من محامده وأخباره :

أمرّ بذاك الربع وهـو رياحـه
معطلـة أعلامـه والمعاهـد

عهدناه دهـرا بالوفـود معطـلا
يزاحـم فيـه الاقربـين الاباعـد

* * *

مواسم جود ما تغب وفودهـا
اذا خف منهـا راحل حط وافد

اذا سام فيهـا المغتدون ، مراتع
وان عاث فيهـا المعتدون ، مآسد

* * *

معـارك ناس في مآلف صبـوة
تجمـع فيهن المعـالي الشـوارد

تغمغم أبطـال وتصهـل قرح
وتصخب أوتـار وتروى قصـائد

* * *

ثم يأمل عودته الى سابق عزه ، اذ لا غنى للحكم عنه :

ستذكره ذكـر الطـريد محلـه
عرى الملك منحـلا بهن المعـاقد
وتفتقر الدنيـا الى رأيـه الذي
يرد اليـه في الامـور المقالـد
ويبلغه الاقبـال مـا هـو ضامن
وينجز فيـه الجد مـا هو واعد
وتعتـذر الايـام بعـد اساءة
فيصحب منفور ويصلح فاسـد

بقي الشاعر مخلصا حينا ثم خضع لمقتضيات سياسة العصر ولزم نظام الملك • وقد حدثنا عن الوزير ونفعنا بحديثه •

ونظام الملك في شعر الطغرائي : أبيض أخـلاقه غُـر ، رهطه من صيابة الفرس ، يقول ويفعل ، شجاع حازم ••• ، فاتح :

رمى بنواصيـها الفـرات فأقبلت
مغيبة الاعطـاف تلـع المنـاكب
وخاض بهـا جيحان يلطم موجه
ملاطمـة الخصـم الألد المشـاغب
خميس أقاصي الشرق ترزم تحته
وترتج منـه أخريـات المغـارب

ويتكرر خبر الفتح :

وما راع أهـل الشام الا اطلاعها
رقـاق الظبى والمقربات السلاهيب

ولما رأتهـــا الروم أيقن أنهـــا
سحاب لها ودق من الدم مسكوب
ومـا طلعت الا وفي كـل نزعـة
بهـا منبر الدين الحنيفي منصوب
وكم لك فيهم وقعـة بعـد وقعـة
جمعت بهـا الاهواء وهي أساليب

ولئن جاء هـذا الكلام باسلوب الشعراء ، فانه في خلاصته حقيقة يؤيدها التاريخ ، ولئن اتسعت رقعة المملكة في عهد السلطانين : ألب أرسلان وملكشاه فان مرد ذلك الى أسباب من أهمها حزم نظام الملك وشجاعته وتدبيره ودهاؤه .

ولم ينس الطغرائي أن يسجل هذا ، ولم ينس أن ينص على الكيد فقال :

خفي مدب الـكيد يكتم سـخطه
رضاه ويسقي السم في مجة النحل

وهذا الكيد شرط في سياسة العصر وشرط للنجاح فيها ، وهو صفة من صفات اخرى توفرت لنظام الملك فأسـند الملك وحفظه ، ولم يكن الشاعر كاذبا حين قـال :

به اعتـدل الملك الذي مال ركنه
ومادت غصون العيش موقرة الحمـل

فذلك ما يؤيده التاريخ ، وما كان يحس به الوزير نفسه ، وما لا يجهله السلاطين أنفسهم ، انما الذي يجدر علمه هو أن الطغرائي لم يقرر هذه الحقيقة لذاتها ، لانه رجل لا يمدح للمدح ... وانما يمدح من أجل غايته ، فهو بين شاكر على نعمة ، وراج لفضـل ، ولا غرو فقـد كان نظام الملك كل شيء في عصره ، وكان أكثر من ذلك برأي الشاعر الذي خاطبه بقوله :

بك اقتـدت الايـام في حسناتهـا
وسيمتهـــا لولاك هـم وتـكريب

فــلا رزق الا من نوالك مجتنى
ولا عمر الا من عطاياك محسوب

وكان لنظام الملك ـ فيمن له ـ ابن هو مؤيد الملك ، وهو كبير أيام حياة أبيه ، وكبير بعد حيــاة أبيه ، ومثله لا يخفى على الطغرائي ، فهو وسيلة اخرى يستعين بها على « قضاء حوائجه » واذاً فليمدحه .

وفي شعر الطغرائي الذي رفعه الى مؤيد الملك فوائد ودلائل ، وقد بدأهــا بالاستعطاف والاستمالة ـ كما هو طبيعي :

تطاردني الايـــام عمـــــا أريده
وألوى بموعود الضمــان فأقنـــع
أمــا درت الايـــام أني في حمى
ولي « أمــير المؤمنــين » ممنــع

★ ★ ★

عَتــاد نظــام الملك للخطب يتقى
وللملك يســتبقى وللحق يتبـــع

وقد نال لديه الحظوة .

ولــكن الذي « لا يمدح للمدح » لا ينجو من التناقض ، ولا ينجو من أن يقع في فخ لم يرد لنفسه أن تقع فيه .

وهذا ما حدث لابي اسماعيل ، فانه بعد اطرائه مؤيد الملك ، أبصر صدرا جديدا يعلو نجمه فيزحم نجم مؤيد الملك ويكاد يكسفه . وفي نظرة من الطغرائي الى « مصلحته » والى « الظرف الراهن » حسب أن الدنيا أصبحت في قبضة « مجد الملك » ، فانصرف اليه يمدحه ويثني عليه بما هو أهله ، وبما يحتمل أن يكونه من تدبير الملك وقمع البغي وسياسة الانام :

ذاك الـــذي خضعت لطاعتـــــه
صيـــد الملوك وأذعـــن القـــلب

في فترة تنسى الحـــلوم بهــــــا
وتشـــابه المـــربوب والـــربُّ

ولهذا شيء من ظل في التاريخ ، ولكن الطغرائي يزيد :

في راحتيـك الـرزق والاجـــل
وبعزمتيــك الامـــن والوجـــل

يزيد ، لانه يشكر ، ويشكر لانه حصل على شيء ويطمع بأشياء ٠

وتقع الواقعة ، ويقتل مجد الملك ، ولم يبق أمام الطغرائي الا الرجوع الى مؤيد الملك ، ولئن كان الطريق شائكا ، فهناك الاعتراف بخطل رأيه ثم الاعتذار بما روج الواشي واختلق ثم العتاب بما كان له من الخدمة وما له من الفضل ٠

ولم تكن القطيعة قصيرة ، ولعلهـا دامت أكثر من « عام وعـام » ٠ وقد بذل الشاعر جهده في اعادة الماضي الى ما كان عليه ، وفي اعادة مؤيد الملك الى احسانه واكرامه ٠ ودل الشاعر على أنه يحسن العتاب والاعتذار ، وأعرب عن شدة وقع هذه الحادثة في نفسه ٠ وكان من ذلك قوله :

وأبلج امـا وجهـــه حـين يجتلى
فشمس وامـــا كفـــه فغمـــام

جرى طائري منــه سنيحا وعلني
بدرّ أيـــاد مـــا لهن فطـــام

وأنزلنـــي منـــه بألطف منـــزل
كمـــا مزجت بابن الغمـــام مــدام

شردت عليه غير جاحد نعمة
أكلف خسفا بعده وأسام
وقد يسلب الرأي الفتى وهو حازم
وينبو غرار السيف وهو حسام
فقد وجد الواشون سوقا ونفقوا
بضائع زور ما لهن دوام
فأصبح شمل الانس وهو مبدد
لديه وحبل القرب وهو رمام
يقرب دوني من شهدت وغيبوا
ويوصل قبلي من سهرت وناموا
تزاور حتى ما يرجى التفاته
وأعرض حتى ما يرد سلام
فلا عطف الا سخطة وتنكر
ولا ردّ الا ضجرة وسئام
فان يك رأى زل أو قدر جرى
بنازلة فيها عليَّ ملام
فوالله ما فارقت فيك خيانة
أعاب بها في محفل وأذام
ولا قرّ لي بعد التفرق مضجع
ولا طاب لي بعد الرحيل مقام

★ ★ ★

اتبعد حتى ليس في العفو مطمع
وتعرض حتى ما تكاد ترام

★ ★ ★

ألم ألق فيك الأسر وهو مبرح
وألتذ طعم الموت وهو زؤام

واستعرض في أماديحه واعتذاراته طرفا من أخلاقه وأعماله ، وأبان عن مكانته ومنزلتـه ، وأعلن عن انتصاره على « المتمردين » وعن تمكنه من سحق « الغادرين » :

فقل للذين استعذبوا الغدر مشربا
رويدا فمرعى الغادرين وبيل
أديروا كؤوس الراح ان وراءها
كؤوسا من السم الزعاف تغول

* * *

ستغرى بأطراف البنان نواجذ
اذا التف يوما بالرعيل رعيل

* * *

فلوذوا بحقو العفو منه فانه
جواد به حتى يقال غفول
وان غلبتكم شقوة الجد فاعلموا
بأن ديار الناكثين طلول

وقد أضاع التاريخ كثيرا من هذه الاخبار وهذه التفصيلات .

ونجح الشاعر في مسعاه للحظوة لدى مؤيد الملك ، كما نجح فى الحصول على العفو ، والعودة الى سابق الاكرام ـ الذي عكره ميله الى مجد الملك حينا ـ ولا أدل على ذلك من رثائه الوزير وقد قتل عام ٤٩٤ فبكاه بكاء فيه جرأة وصدق واخلاص :

ما بعد يومك للحزين الموجع
غير العويل وأنة المتفجع

وسجل من دقائق المعركة ومشاهدها ما لم يحفظه التاريخ :

... هـذا « عبيدالله » أسلمه الأولى
ضمنوا الثبات لـكل خطب مظلع

خاضوا بـه الغمرات ثـم تخاذلوا
وتقاعسـوا عنـه دوين المصـرع

وتسـرعوا نحـو اللقـاء وخلفـوا
في النقع ثبت الجأش لم يتسرع ...

ويضم ديوان الطغرائي من مديح الصدور أكثر مما يضم من مديح السلاطين ، ومن أسباب هذا ، أن الطغرائي بدأ في سعيه الى المنصب منهجيا متدرجا من الكتابة الى نيابة الطغراء الى الطغراء والانشاء .. ولم يكن السلطان العامل المباشر لمثل هذه الرتب ، وانما هي من « صلاحيات » معين الملك ونظام الملك ومؤيد الملك ومجد الملك ... أما السلطان فأكثر ما يعنى بكبار الامور كالوزارة ، وهي - وان كانت مبتغى أبي اسماعيل الا انها ما زالت بعيدة ، فلا يصح أن ينافس فيها نظام الملك أو مؤيد الملك ... على أنه لا مانع لديه من أن يزرع عند هذا السلطان أو ذاك مقدمات تنفعه في حاضره وتعينه في مستقبله ، ولاسيما بعد أن أصبح أصيلا في الديوان . وها هوذا قريب من السلطان يتقلب في ديوان الطغراء والانشاء وفي « نعمٍ » اخرى .

لقد حقق ذلك بالمدح وبالشكر وبانتهاز المناسبة للمدح والشكر ، وما دام الزمن زمن مبالغة ، وما دام الممدوحون يرتاحون للمبالغة ، فليبالغ ما شاءت له المبالغة ، حتى لو استهل قصيدة بمدح ملكشاه بمثل :

لجلال قـدرك تخضـع الاقـدار
وبيمن جـدك يحـكم المقـدار

والدهـر كيف أمرته لك طائـع
والله حيث حللتـه لك جـار

★ ★ ★

والفيلق الجـرار بين يديـه من
سـطوات بأسـك فيلق جـرار

★ ★ ★

هذا هو العصر الذي سبقت به الـ
ـبشرى وجـاء بـذكره الآثـار

★ ★ ★

واذا هممت جرى القضاء بمـا ترى
فـكأنك المتحـكم المختـار

★ ★ ★

جردت عزمك للجهـاد فقبـل أن
جردت سـيفك زلـزل الـكفار

ليقل هذا ، وما هو أكثر منه ، ما دام ذلك يقربه خطوة من الحكم • وقد يكون للطغرائي في « مبالغاته » مبرر تاريخي من « عظمة » السلطان ملكشاه وكثرة فتوحاته وسعة ملـكه ، ولكن ما عسى مبرره أن يكون حين يقف على عتبة ملك « طفـل » في الحـادية عشرة من عمره ، هو الملك مسعود الذي يحكم أتابكه « جيوش بك » الموصل وأذربيجان ••• ، يقف ويقول : انه ملك الملوك وانه :

تمشي الملوك الصيـد تحت ركابه
ويظـلـه بجنـاحه جبـرين

★ ★ ★

يـا أيهـا الملك الـذي بجـلاله
قضي القضـاء وكون التـكوين
مرضـاته تحيي ويردى سـخطه
فهما حيـاة للورى ومنـون •••

أيقال مثل هذا لمثل مسعود ؟ أم انه كفر وبهتان ؟ ان الطغرائي لا يجهل قصر الملك ولا يجهل عجزه ، ولكنه لا ينظر اليه خلال عقله ، انما خلال هواه ، ولا أعظم لديه ـ ولاسيما بعد أن خيبته بغداد[2] وخيبته أصبهان ـ من امرىء يسير به خطوة نحو غايته . وهو اذ قصد مسعودا عام ٥١٣ ، انما قصده من أجل وزارة لم يحققها له السلطان محمود .

أما الخلفاء فطبيعي أن لا يكون لهم حظ من ديوان أبي اسماعيل ، ولم يستعن بهم وقد « عرف من أين تؤكل الكتف » ؟ والدنيا كلها ـ بما فيها الخليفة ـ بيد السلطان ووزيره . وهوى الشاعر أكبر من أن يحققه خليفة ، وأكبر من يحد بدينار أو ضيعة .

على اننا قد رأينا الطغرائي ـ في عامة مديحه وفي أحسنه ـ لا يخرج عن القصد والارادة والهدف الى ما هو أبعد من المدح والممدوح ، وعمل هذا شأنه ، أن سلم ـ لدرجة ما ـ من مجانبة التاريخ فانه لا يمكن أن يكون مجال عاطفة صادقة وخيال أصيل . انما هو مهارة وصناعة يؤيدها التمكن من اللغة وتراكيبها وبلاغتها وتسندها الاستفادة من خبرات السابقين من أمثال النابغة والبحتري وابن هانى والمتنبي .

وليس من اليسير على شاعر كالطغرائي أن يهب نفسه لممدوحيه ، وليس من الممكن أن يخرج عن ذاته ، وهذا واضح بين لكل من عرف رأي الطغرائي في نفسه ، ووقف على فخره ورآه كيف يشيد فيه بكفاياته ومواهبه . ورآه كيف يطلق لنفسه العنان لتقول كل ما تريد وبكل صراحة دون احتياط (أو خجل) . وهو « عريق » في هذا الفن فقد طرقه منذ صباه (ديوانه ، ص ١٣١) . ولئن كان الفخر قديما في الشعر العربي ، ولئن كان شائعا في مختلف عصوره فان ذلك لا يحول دون الاجادة ، لان الطغرائي انما يفخر ـ مخلصا ـ بما لديه وبما

(٢) عام ٥٠٥ .

يحس به في أعماق نفسه ، ولانه يعتمد رصيدا من الحقيقة لا يقول معه سامعه : كذبت .

وقد يفخر بأسرته وكرم محتدها الا أن ذلك لا يؤلف اتجاها بينا في شعره ، ان الاتجاه البين انما نلمسه في فخره بعلمه ، ولا يشك امرؤ في علم الطغرائي وسعته وعمقه ، ولكن الشاعر يؤكد علما بعينه هو الكيمياء ، وهذا علم شهد له به الناس وشهدت له به مؤلفاته ، ولا يريد الطغرائي أن يقف منه عند حد ، انه ليسمح لنفسه أن تنطلق كما تريد ، وهل من ادعاء بعد قوله :

أما العلوم فقد ظفرت ببغيتي
منها فما أحتاج أن أتعلما
وعرفت أسرار الخليقة كلها
علما أنار لي البهيم المظلما
وورثت « هرمس » سر حكمته الذي
ما زال ظناً في الغيوب مرجما
وملكت مفتاح الكنوز بحكمة
كشفت لي السر الخفي المبهما
لولا التقية كنت أظهر معجزاً
من حكمتي تشفي القلوب من العمى
أهوى التكرم والتظاهر بالذي
علمته والعقل ينهى عنهما ...

وفي باب من هذا العلم وهذا الفخر يقول كذلك :

ألا ان علما بين جنبيَّ مودعا
يضيء ورائي نوره وأمامي
انارة علم الصادقين وما أتت
به الرسل فيه ، برء كل سقام

مفاتيح علم الله في الارض من تفز
بهـــا يده يظفـــر بـكل مـرام
فان عشت أحوِ الملك لم تحو مثـله
يدا ملك في العـــالمين همـــام
وان مت من قبل الوصول بحسرة
فـكم حسرات في نفوس كـرام

والادعاء واضح ، وقـد تؤاخذه عليـه ولا ترتضيه لرجل يجب أن يكون متزنا ، ولكنك لا تنكر على الابيات شاعريتها ، ولا تنكر أن الانسان قـد يخرج عن سمته ولاسيما اذا كان شاعرا • ويبدو أن الطغرائي قال هذه الابيات لينفس بها عن ضيق ألم به ، وليهرب خلالها من واقع مر ، وليعوض بما يعتقده في نفسه عما سلبه الناس اياه من انصاف في الرأي والمال •

وانك لو استقريت ديوان الطغرائي لاحظت أن الشاعر انما يفخر ويكثر من الفخر عندما يؤذى ، فاذا أساء اليه الاعداء وألبوا عليه قال معلنا قدرته وحلمه وسمو منزلته ، ناشرا في قوله أصداء القلب المكلوم :

قالوا صبرت على المكروه من نفر
لو شئت حكمت فيهم كف منتصر

تعدو عليك رجال لو هممت بهم
صاروا فرائس بين النـاب والظفر

تغضي الى أن يقول : العجز ألزمه
ذلا ، وتصبر حتى لات مصطبر

حتى م تحلـم عنهـم غير منتقـم
والحـلم ينزع أحيـانا الى الخور

★ ★ ★

فقلت انهـــم عنـــدي وكيدهـــم
كالكلب اذ بات يعوي صفحة القمـر
أنى أبت لي أخـــلاق مهـــذبة
أن أسلب الحلم بين الحقد والضجر

واذا بالغوا في العـداء ، جعل من نفسه الشمس سموا والنسـر ارتفاعـا ، فكيف يبلغون مناطه •

ويلج بالفخر في الحالات التي يضام فيها وتضيع عليه حقوقه وتغمط خدماته ويزهد في كفايته ، أو بكلمة أدق عندمـا يمس طماحه بسوء ، ولا غرو في أن تتمخض حالات مثل هذه عن جياد قصائده • ويبدو ان أكبر مصاب حل با ماله كان عام ٥٥٥ هـ بمدينة السلام عندما عزل عن منصبه • والمصاب الجسيم يدفعه الى الفخر الزائد فكأنه يتكيء عليه ويؤكد به وجوده • ولئن قال :

أصالـــة الـرأي صانتني عن الخطـل
وحليـة الفضـل زانتني لـدى العطـل

مجدي أخـيرا ومجدي أولا شـــرع
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

* * *

غـــالى بنفسي عـــرفاني بقيمتهـــا
فصنتهـــا عن رخيص القـــدر مبتذل

لئن قالها ، فقد قالها ليشد من صبره بعد أن خذله الآخرون ، وليدفع عن نفسه بعـد أن أصبح موضع تهمة ، وقالهـا أكثر من ذلك ليملأ الفراغ الذي أحدثه ذهاب المنصب • ولئن بدا مبالغا ، فان مبالغته صادقة تقوم على ثقة بالنفس ولم تخرج عن عمود الاجادة والتأثير الى ميدان المخاريق والخرافات •

ومن هذا الضرب من الفخر « المقبول » الذي يدل على الصدق والايمان

قوله في هذه الفترة (أو في فترة مشابهة) :

أبى الله أن أسمو بغير فضائلي
اذا ما سما بالمال كل مسوّد
وان كرمت قبلي أوائل أسرتي
فاني بحمد الله مبدأ سؤددي

الا أنه لا يلبث حتى يفقد وقاره ويوغل ويقول :

وما منصب الا وقدري فوقه
ولو حط رحلي فوق نسر وفرقد

ولكنه حتى في هذا ، لا يفارق دنيا الشعر . ثم يحس بعض ما يحسه الناس عندما يسمعون مثل هذا البيت فيبرهن ويبرر :

اذا شرفت نفس الفتى زاد قدره
على كل أسنى منه ذكرا وأمجد

ثم يشير الى سبب من الاسباب المباشرة في استفزازه :

يكاثرني من لا يقاس نجاده
بشسعي اذا ما ضمني صدر مشهد

والحقيقة ان شكوى الطغرائي من المكاثرين والمنافسين والاعداء ... كثيرة وشديدة حتى ليبدو وكأن الشكوى جزء لا يتجزأ من خلقه ، وهذا صحيح ، ولكنه لم يشك لمجرد الشكوى ، ولم يتألم من الاعداء من كل نوع ... وانما كانت الشكوى عنده ضربا من الفخر وهي تصدر عنيفة و « رائعة » لانها تتصل بطماحه وتعرب عن أهم مكونات نفسيته وأبرز مبررات وجوده ، أعني المنصب . فاذا تزعزع هذا المنصب وأوشك أن ينقض صاح معتزا شاكيا :

اذا لم يكن لي في الولاية بسطة
يطول بها باعي وتسطو بها يدي

ولا كان لي حكم مطاع أجيزه
فأرغم أعدائي وأكبت حسدي

ولم يغش بابي موكب بعد موكب
مخافة ايعاد وتأميل موعد

فأروح من هذا اعتزال يصونني
صيانة مطرور الغرارين مغمد

فأعذر ان قصرت في حق مجتد
وآمن أن يعتادني كيد معتدي

أأكفى ولا أكفي وتلك غضاضة
أرى دونها وقع الحسام المهند ...

ان همه ، كل همه من الدنيا ولاية وبسطة في الولاية ، ومتى أحس ببعد هذا وابتعاده ، ساوره الغم وانتابه الاسى . وعليه ، فلا غرو ان أثارت فيه مصيبة عام ٥٠٥ أعنف الابيات .

ومذ فقد المنصب تذكر (لاول مرة) أنه غريب في بغداد وأن له وطنا في غيرها ، وأن عليه أن يأوى الى الراحة :

فيم الاقامة بالزوراء ، لا سكني
بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

وتثقل عليه الاقامة ببغداد ، ويثقل عليه أهل العراق فيبدون لناظره وكلهم مساوىء :

مللت ثوائي بالعراق وملني
رفاقي وكانوا بالعراق طرابا

ويبعثه فقد المنصب على الايغال في التشاؤم من البشر فيعمم الخاص .

أعدى عدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل

وهـذا منتهى التشاؤم . وقد يؤاخذه عليـه مؤاخـذ ممن يدعون للتفاؤل وتحسين الرأي بالانسـان ولـكن هـذا لا يغير من الحقيقة برأي الطغرائي أيام المصاب ، أما في غيرها فقد يعتدل ويعلل ويقول :

ومن تطامن للدنيـا غواربـه
لم يخل من نصب فيها ومن رغب

أو يقول :

والعيش كالماء قـد يصفو لشاربـه
حينا ، ويشرب أحيانا على الكدر
حمنا عليـه فلمـا طـاب موردنـا
أقامنـا الخوف بين الورد والصدر

أو انه يعزي نفسه ويطمعها بالمستقبل :

كأن لم يكن بالمرء من قبل عثرة
اذا انتعشت تلك الجدود العواثر

أو انه يكل أمره الى الله الذي بيده كل شيء :

تفرد الله بالتـدبير مـا اشتركت
فيـه نجوم ولا شمس ولا قمـر

فكل الى الله ما أعياك مطلبه
فسوف يأتي بما لا تأمل القدر
والخير والشر منه جاريان على
ما شاء : لا حيلة تغني ولا حذر

وكلما ضاقت به الاحوال وكلما نظر فيما حوله ازداد ايمانا بأن لا حيلة تغني ولا حذر ، ولكنه يعوّل في هذه المرة على الحظ وسلطان الحظ :

أو ما ترى الارزاق تطلب غافلا
وتصد عن لهفان وهو طلوب
وأرى الجدود هي الحواكم للورى
وبهن يخفق طالب ويصيب
فاذا قطعنك فالقريب مبعد
واذا وصلنك فالبعيد قريب

وقد تخالفه وأنت في حالتك الهادئة ، ولك الحق ، الا أنه يرى الدنيا من زاوية مصابه ويأسه :

فأين مفري وما حيلتي
وجدي في كل صوب أمامي

ولا يرده الى التفاؤل الأمر والنصح ، وانما أمله في تغير الاحوال : « ما أضيق العيش لولا فسحة الامل » ، وبالصبر انتظارا للطالع السعيد :

لا تجزعن ان فات ما رمته
واشدد عرى عزمك بالصبر
فالجد ان ساعد نال الفتى
بغيته من حيث لا يدري

وهكذا تتصل « فلسفته » في الحياة بالمنصب وتتصل أكثر من ذلك بفقد

المنصب وما يسبب ذلك من ضيق وألم وشكوى يعممها على الناس ونواميس العيش ، ولا غرو في أن يقول في مثل هذه المواقف مثل ما سمعنا ، ومثل :

ألم تر أن الناس أبناء دهرهم
وكلهم في فعله كأبيه
فان غدرت بالحر يوما بناته
فذاك قليل من كثير بنيه
هي الدار ينبو بالقطين جنابها
فمن خامل ينتابه ونبيه
تخبرنا عمن تقدم قبلنا
وان لم نسائلها بكيف وايه

ومثل :

ولقد بلوت الدهر أعجم صرفه
حتى استوى المكروه والمحبوب
سل بي بنات الدهر فهي خبيرة
اني عن المرعى الذميم عزوب
تباً لمن يمسي ويصبح لاهيا
ومرامه المأكول والمشروب

ومثل :

وأكثر الناس من تشقى بصحبته
ومصطلي النار لا يخلو من الشرر
تشابهوا في طباع الشر بينهم
على اختلاف من الاهواء والصور

* * *

فلا ترومن اصافا وقد شهدت
مخالب الليث أن الظلم في الفطر

هذه هي « فلسفة » الطغرائي ، وفيها كثير من الحرارة والشدة لانها تعبير عن وخزات الالم واعراب عن الساعات السود . واذا أضفت الى هذه الساعات ما لقي الشاعر في حياته من تجارب ، علمت أن الرجل أصبح أهلا لان ينصح ويعظ ، وهذا ما حدث فعلا ، فقد أسدى ثمرات خبراته الى الآخرين مبتدئا بالاقرب فالاقرب داعيا الى الاحتمال من الاعداء ، والمجاملة ، والقناعة بميسور العيش ، واطاعة الآباء ، والصبر على تصاريف الزمان ، والمصافاة والشكر والتعاون ، وهو صاحب :

كونوا جميعا يا بَنيّ اذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسراً واذا افترقن تكسرت أفرادا

وصاحب :

أخاك أخاك فهو أجلُّ ذخرٍ اذا نابتك نائبة الزمان
وان رابت اساءته فهبها لما فيه من الشيم الحسان ..

ونصائحه لا تكاد تزيد عن فكرة شائعة رصفت في كلام موزون مقفى يسهل سماعها ، ويسهل حفظها دون أن يرتفع بها كثيرا عن النثر .

ويبدو الطغرائي في النصائح والخطرات الفلسفية ... والشكوى والفخر والمديح .. مهموما مغرقا في الجد ، منصرفا الى جانب واحد لا يعنيه غيره من الحياة ، مما يبعث على التساؤل ، ويزيد التساؤل وجاهة اذا تذكرنا انه مر بأيام سعادة حققت له بعض ما كان يصبو اليه . ونعود الى الديوان بنية جديدة نستجلي بها الجانب الضاحك من حياته فنرى هذا الجانب ضيقا يتمثل في هذه الرسالة التي

كتبها الى عزالدين بن حامد المستوفى يدعوه ليشاركه النشوة :

فديتك قد تنبهنا لدهر عيون صروفه عنا نيام
وجاد لنا الزمان بجمع شمل تألف بعدما انقطع النظام
مدام يشبه التفاح ذوبا وتفاح كما جمد المدام
ومن نسج الربيع محبرات تأنق في حواشيها الغمام
وأصوات المثالث والمثاني كما سجعت على الايك الحمام
وريان الصبا للحسن فيه بدائع لا يحيط بها الكلام
له من فتك صدغيه نجاد ومن ألحاظ عينيه حسام
ومجلسنا على ما فيه يرمى بنقصان وأنت له تمام
فلا تعتل بالاشغال واحضر على عجل والا فالسلام

والرسالة طريفة • وله رسالة اخرى يدعو بها الى مائدة « ثرية » بكل ثري :

فديتك قد حان وقت السحور ولاح الصباح ولم تحضر
وجاء الطهاة بما عندهم وحث السقاة على المسكر
ومد القباطي فوق الخوا ن يلمع كالقمر المزهر
وحان الصلاة على ابن الشهيد فحيٍّ على دفنه تؤجر
وفوق المنصة مجلوة علينا عرائس من سكر
بنات المؤذن ذاك الذي يؤذن والصبح لم يسفر
سبين وعرين من بعدما ذبحن فيا لك من منكر
فلما سلبن الثياب ابتلين بسوداء موحشة المنظر
أصابعها الحجن مسنونة نواشب منهن في المنخر
فزارت بهن سواء الجحيم تُرنّحُ باللهب المسعر
فمصلوبة سمّرت كفها الى جيدها وهي لم تشعر
ومثقوبة البطن في جوفها كرات من الذهب الاحمر

وأخرجن منهـا الينـا يسقـ ن سوق العصاة الى المحشر ..
فبـادر الينـا فدتك النفوس ولا تتـوقف ولا تفتـر
وشـارك بأفعـالك الاقدميـ ن في العزف والخمر والميسر

والقصيدة مثل على ترف الشاعر وترف عصره ، وهناك أمثلة اخرى يمكن أن نراها في وصف الغدران والرياض ووصف مظاهر الطبيعة الاخرى من سماء ونجوم وكروم وورود ... وقد زخرت هـذه الاوصـاف بالزبرجد والياقوت والمسك والحرير و « حقاق تبر بطنت بفضة » :

وترى شقائقها خلال رياضها أوفت مطارفها على أزهارهـا
فكأنها والريح يصقل خدّها والسحب تملؤها بصوب قطارها
أقداح ياقوت لطاف أترعت راحا فبات المسك سؤر قرارها

وهـذه مسميات وتشابيه لا تتهيـأ الا لاهل النعمة والثراء الذين عرفوها وألفوها ، وهو في ذلك أقرب الى ابن المعتز الذي وصف ما رأى وما ملك . وهو اذ يقترب منه بذلك ، يقترب كذلك بفنه الذي جاء « ماديا » وعرضا من الخارج ، وبأسلوبه الجاف الذي يكاد ـ في جملته ـ يستحيل نثرا .

والطغرائي الى جوار هـذا الترف الاجتماعي الذي بدا في وصف الطبيعة ووصف الموائد ، ترف فني يبدو في غزله الذي كان يقوله ليرضي المفاهيم الفنية في عصره وليزجي فيه طرفا من أوقات الفراغ .

ويقوم هذا الغزل على المهارة قبل كل شيء ، وتتلخص هذه المهارة في القدرة على الظهور بمظهر العاشق ـ والعاشق الكبير دون معاناة لعشق ودون وقوع في حب ، وكل ما فيأمره انه نظم لمعان شائعة ذائعة فيه الغرام والوله، والموعد واللقاء ، والعاذل والواشي ، وسـهر الليالي ، ونحول البـدن .. والدموع . معان هي معاني كل الناس ، ولو قرأها قارىء وهو خالي ذهن من تاريخ الغزل في الادب العربي وجاهل بأسرار الكذب ... لحسبها صدقا ولبنى عليها أحكاما لا تمت الى الواقع بسبب متين وقـد يستنبط أن الطغرائي عاش في جزيرة العرب ومثل

أطواره الكثر على مسارح الجرعاء ، الحمى ونجد والحجاز والغور والعذيب ووادي العقيق ... والاجرع الفرد ، ويروح يبحث في كتب الجغرافية والبلدان ليستكمل البحث . وفي ذلك ضـلال كبير ، لان الطغرائي لـم ير شيئا مما ذكر ولم يعش يوما في هذه الاماكن التي طال حنينه اليها وتعددت مغامراته في أركانها ، وأخذ من بيئتها تشابيهه ومن أهلها مظاهر حياتهم .

وليست المسألة مسألة قول ، لان هذا القول ابن المهارة أولا وقبل أي شيء ، وقد أوتي الطغرائي كل الادوات اللازمة للنجاح في هـذا الفن من لغة وحفظ ومران واعجاب بالشريف وجميل والبحتري وابن أبي ربيعة وأضرابهم . وتقليده للشريف الرضي واضح لا غبار عليه ، وقد نص هو نفسه على المعارضة(٣) .

وقد بلغت مهارة الطغرائي من الدقة بحيث جلت هذا الشعر الذي لا يمت الى حقيقة بصلة في حلّة تجتذب القارىء وتستثير اعجابه وقـد تخدعه أحيـانا عن نفسه فيخال صدقا ما لم يكن بصدق .

ومما يقصه علينـا أبو اسماعيل من أوطار هـذا « الحب » وأطواره ، أن « حبيبته » كانت توافيه فيتطارحان الاسرار :

أتت وهي أحلى للفؤاد من المنى
وأطيب من تهويمـة الفجر في جفني

★ ★ ★

فرشت لهـا خدي وقبلت كفهـا
خضوعا ولا تقبيـل مستلم الركن
ولمـا تطارحنـا الاحاديث بيننـا
وبحنـا بأسرار القلوب ولم نكن

---

(٣) ننظر ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ من ديوان الطغرائي ، وتقابل بـ ص ٥١٦ ، ٤٦١ ، ٥١٧ ، ١١٩ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ، ١٥٢ من ديوان الشـريف الرضى ، طبعة دار الاخبار .

حلفت لها بالبدن تدمى نحورها
اليـة بر صادق ليس يستثني :
لانت صميم القلب في النفس والذي
اذا رمت حبا غيره فهو ما أعني
وما اقتسم العشاق مذ صرت بينهم
سوى سؤر وجدي والبقية من حزني

وتستزيده عن أخبار اللقاء فيقول :

فلم أر الا ما ألـذ وأشتهي
ولم يك الا ما أود وما أرضى

وتستزيده وتستوضحه ، فينبئك حديث القبل :

وافت وفوق لآلي الثغر من لعس
ختام مسك ففضت ختمها القبل

ثم حديث التقى والعفاف :

بتنا وبات التقى يقظان يحرسنا
ودِيننا في الهوى قول ولا عمل
ثم انثنينا وجيبي ليس يعلقه
غير العفاف ورِدني من دمي خضل

وليست هذه المرة الاولى أو الاخيرة فلطالما عف وهو قادر :

وليلة وصل قد قدرت فصدني
حيائي الا ان الحياء رقيب

ولـكن ، ليس الحب وصالا فقط ، كيف لا ، وهنـاك البعد والفراق وما يعقبان من جزع وحزن :

هم نزعوا من طاعة الصبر بعدهم
يديّ وأغـــروا ناجـذي ببنـاني

وسهر ونحول :

هناك الكرى يا راقد الليـل انني
ألفت سـهادا طـاب لي وهنـاني

* * *

فيا صاحبي سري وجهري أسعدا
فلـم يبق مني غـير مـا تريـان

واذا حالت الحوائل دون الوصل واخفق الوشاة في عبثهم صاح :

هم أرجفوا بالوصـل بيني وبينكم
وظن بنـــا فيما حـكوه ظنـون
فليت أراجيف الوشـــاة حقيقـة
وليت ظنــــون الـكاشحين يقـين

وكان بوده لو كتم حبه وعفى على أشواقه ـ ولكنه يحاول عبثا :

سرى حيث لا يدري الضمير مكانـه
ولا يهتدي يومـا اليـه الهواجس
اذا قلت هـذا يوم أسلو تراجعت
عقابيـــل من أســقامه ووساوس

يحاول ، ولا يستطيع :

ومن لي بكتمان الهـوى ومدامعي
تنـم وأنفاسي الحـــرار تشـيع

وينحى باللائمة على قلبه :

يا قلب ما لك والهوى من بعدما
طاب السلو وأقصر العشاق
أو ما بدا لك في الاقامة والأولى
نازعتهم كأس الغرام أفاقوا
مرض النسيم وصح ، والداء الذي
أشكوه لا يرجى له افراق
وهدا خفوق البرق والقلب الذي
تطوى عليه جوانحي خفاق

* * *

وأنا الفداء لمن تصرم حبله
عني ولم تتصرم الاعلاق
يا حبذا نجد وأعراق الثرى
لدن ، وأنفاس النعيم رقاق

والغالب على نسيب أبي اسماعيل فخامة اللفظ وفخامة التراكيب ، الا أنه قد يسهل حتى يقرب من منهج العباس بن الاحنف فيقول :

ظلوم ليس ينصفني	يواعدني ويخلفني
يضن بما أكلفه	وأبذل ما يكلفني
يقول : ـ وقد شكوت اليـ	ـه ما ألقى ـ أتعرفني ؟
فقلت له أأنكر من	يعذبني ويتلفني

وقد ذكرنا أسباب نجاح الطغرائي في مزاولة الغزل التقليدي ، وكان علينا أن نضيف سببا آخر هو استفادة الشاعر من تجاربه الخاصة فلقد رأيناه في مطلع حياته محبا صادق الحب وقد فجعه الزمان بحبه ذاك فكان الرثاء الذي رأيناه على

أحسن ما يكون عليه الغزل ، ثم سار الزمان وأراد أن ينظم كما نظم الآخرون إن في المقطعات ، وان في مطالع قصائد المديح فنهل من معاني القدامى ومن تراكيبهم وقد أجاد في ذاك اجادة ملحوظة ، ولكنه كان يفيد أيضا ـ بقصد أو بغير قصد ـ من رصيده القديم • فاذا تحدث عن الاشواق والوصل والعذال والكتمان والاطياف ••• لم يبدأ من صفر ، بل ان بين الصفحات التي كرسها الديوان للغزل التقليدي أبياتا يطغى فيها الرصيد الاول حتى لتخالها مما قاله في حبيبة بعينها • ومن ذلك هذه الابيات :

خبّروها أنى مرضت فقالت	أضنى طارفا شكا أم تليدا
وأشاروا بأن تعود وسادي	فأبت وهي تشتهي أن تعودا
وأتتني في خفية وهي تشكو	رقبة الحي والمزار البعيدا
ورأتني كـذا فلم تتمالك	أن أمالت عليّ عطفا وجيدا
ثم قالت لتربها وهي تبكي	ويح هذا الشباب غضا جديدا
زورة ما شفت عليلا ولكن	علمت جمرة الفؤاد وقودا
وتولت بحسرة البين تخفي	زفرات أبين الا صعودا

ومنه هذان البيتان :

أجمّا البكا يا مقلتي فانني	على موعد البين المبدد ، واقع
اذا جمع العشاق موعدهم غدا	فوا خجلتا ان لم تعني المدامع

خاتمة :

طرق الطغرائي كل أغراض الشعر المعروفة في عصره ، وكان مجيدا في رثائه لزوجته اذ أعرب عن حزنه بشعر هو البكاء والدموع ، وكان أصيلا مجيدا في فخره بفضله وطماحه الى المجد اذ جلا ثقته بنفسه وجلا صورة الطغرائي ، ولئن بدا مغاليا ، فان نصيب الواقع من أقواله غير قليل ، والمنصب ـ على أية حال ـ مفتاح شخصية الشاعر وسر الصدق في فخره وشكواه ، لان الشكوى في شعره ضرب من الفخر ، وتبدو على أعنف ما يمكن عندما يمس منصبه بسوء ، ومثل الشكوى ما مت اليها بصلة من حكم ووجهات نظر •

ولئن كان حظ العاطفة كبيرا في أكثر ما قال من هذه الاغراض ، وكان حظ الصور والاخيلة مرتبطا بهذه العاطفة فان للتراكيب وما فيها من ألفاظ وصلة

اللفظة باللفظة بحيث تأتي الابيات محكمة السبك ، صلة واضحة بالعاطفة والخيال وقد تماسكت الابيات وترابطت الوحدات الفكرية الصغيرة ضمن اطار فكرة سائدة فبدت القصيدة بعيدة عن التكلف والتصنع ، وبدا الشاعر وكأن همه الاول الاعراب عما ينتاب قلبه من ألم وأمل ولا يهمه بعد ذلك أن يرضى عنه الآخرون أو أن يسخطوا •

أما أغراضه الاخرى في المديح والغزل والاخوانيات والوصف فتقوم أول ما تقوم على المهارة وارادة النظم والقصد اليه من أجل غاية خارجة عن طبيعة نفسه وخارجة عن طبيعة الشعر ، فهو اذ يمدح ويعدد الصفات المعروفة في الشجاعة والكرم انما يريد أن يرضي أناسا بعينهم من أجل نفوذهم ثم هو يعلم ان مثل هذا الشعر في المديح وغيره ينشد في المجالس ، وللمجالس ذوق خاص فهي تعجب بغرابة اللفظ وغرابة الجناس والطباق والكناية والاستعارة ••• كما انها تعجب بمعان وموضوعات وتراكيب مكررة معادة ولكنها من مخلفات السلف الصالح ••• وهذه مطالب كثيرة ينوء بها الشعر ولا يمكنه النهوض معها سليما متدفقا ، وهذا الذي حدث للطغرائي ولغيره ، ولكن الشاعر المتمكن يستطيع أن يعوض بالمهارة عن الصدق والعاطفة والخيال – تعويضا ما ، وهذا الذي أضفى على اشعار الطغرائي في هذه الاغراض شيئا من الطرافة والرونق • دون أن يسلم من الوقوع بين الحين والحين في سخف التراكيب وسخف الافكار ، وقد توهمه المهارة الزائدة باختيار قواف صعبة كالحاء والضاد والصاد ، وبالنظم على قافيتين وبمعارضة الشريف الرضى والبحتري ••• فيوقعه توهمه في وهن شعري جديد •

ولئن كان لشعر المهارة قيمة تاريخية ولبعضه طرافة تجتذب القارئين ، واذا كان الشاعر قد أضاف الى ذلك شعرا تعليميا يعنى به طلاب الحكمة من أي اناء خرجت وطلاب الكيمياء كيفما عرضت ، فان أهمية الطغرائي الاولى لدى القارىء الحديث تأتي من شعره الاصيل في الرثاء والفخر والشكوى حيث يجد القارىء العاطفة والخيال والبناء ويجد أسرارا من طوايا نفس الشاعر ونفس الانسان فيقرأ الاثر اعجابا وتقديرا •

لامية الطغرائي

رموز التحقيق

ل ــ مخطوطة ديوان الطغرائي بلندن
غ ــ مخطوطة ديوان الطغرائي نسخة راغب باشا
يا ــ ياقوت في ارشاد الاديب • ط • دار المأمون
خ ــ ابن خلكان • ط • الوطن
ص ــ الصفدي ، الغيث • ، ١٣٠٥

١

النص محققا

(١)

أصالةُ الرأي صانتني عن الخَطَلِ
وحِليةُ الفضلِ زانتني لدى العَطَلِ (١)
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شَرَعٌ
والشمسُ رأدَ الضحى كالشمس في الطَفَلِ (٢)

---

(١) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب ، العطل : في الاصل خلو جيد المرأة من القلائد ، وفي البيت تجريد الشاعر من المنصب •

(٢) مجدي أخيرا ومجدي أولا : قد يكون القصد ، مجدي بعد التعطيل وقبله ، وقد يكون ، مجد أسلافي ومجدي ، المعنى الاول أنسب • شرع : سواء • رأد الضحى : شروق الشمس بعد طلوعها ، والرأد ارتفاعها • الطفل : قرب الغروب ، طفلت الشمس ، مالت الى الغروب • والمقصود في البيت : الرأد أول =

فيم الاقامةُ بالزوراءِ لا سكني
بها « ولا ناقتي فيها ولا جملي »[٣]

ناءٍ عن الاهل صفرُ الكف منفردٌ
• كالسيف عُرِّيَ متناهُ عن الخِلل[٤]

فلا صديقَ اليه مشتكى حَزَني
ولا أنيسَ اليه منتهى جذلي[٥]

طال اغترابيَ حتى حنَّ راحلتي
ورحلُها وقَرى العسالة الذُبل[٦]

وضجَّ من لَغَبٍ نِضوي وعجَّ لما
يلقى ركابي ، ولجَّ الرَّكبُ في عَذلي[٧]

= النهار ، والطفل آخره •
والمعنى : مجدي في الاول والآخر سواء ، كما ان الشمس هي الشمس في أول النهار وفي آخره •

(٣) غ ، يا ، خ ، ص لا سكني : لا وطني ، ل • السكن : ما يسكن اليه الانسان من زوج وغيره •

(٤) غ ، يا ، خ ، ص كالسيف •• عن : كالنصل •• س ، ل •
متناه : المتن الظهر مكتنفا الصلب عن يمين وشمال ، وهما جانبا السيف •
الخلل : جمع خلة ، والخلل بطائن كانت تغشى بها أجفان السيوف منقوشة بالذهب وغيره •
والمعنى : أصبحت كالسيف الذي جرد من حليته فلا تنظره العيون •

(٥) صديق •• أنيس شكلها ناشر ياقوت : صديق (بضمتين) •• أنيس (بضمتين) • ل ، يا ، خ ، ص اليه منتهى : لديه ، غ •

(٦) ل ، غ ، خ قرى : قرا ، يا • وشكلت في غ بكسر القاف •
الراحلة : الناقة ، العسالة : واحدها عسال ، وهي الرماح ، قرى : أعلى السنان ، الذبل : جمع ذابل ، وهو من صفات الرمح كأنه يصف الرماح بالخفة والدقة •
طال اغترابي وامتد سفري الى أن حنت راحلتي وحن رحلها وحنت أعالي رماحي الى الدعة والسكون والاستقرار •

(٧) النضو : البعير المهزول •

أُريد بسطةَ كفٍّ أستعينُ بها
على قضاءِ حقوق للعُلى قِبَلي[٨]
والدَّهرُ يعكِسُ آمالي ويُقنعني
من الغنيمة بعد الكدِّ بالقَفَل[٩]

(٢)

وذي شطاط كصدر الرمح معتقلٍ
بمثلهِ غيرِ هيابٍ ولا وكِلِ[١٠]
حلو الفُكاهة مر الجد قد مُزجت
بقسوة البأس منه رقة الغزل[١١]
طردتُ سرحَ الكرى عن ورد مقلته
والليلُ أغرى سوامَ النوم بالمُقل[١٢]

---

(٨) ل ، غ للعلى : للعلا ، يا ، خ ، ص ٠
بسطة كف : سعة في المال ٠
(٩) ل ، غ ، خ ، الكد : الجد ، يا ٠
(١٠) ل ، ص ، بمثله : لمثله غ ، يا ، خ ٠
الشطاط : بالفتح والكسر اعتدال القامة (واختار ناشر ياقوت فتح الشين) ٠ الاعتقال : هو أن يضع الفارس رمحه بين ساقه وركابه ، ومعتقل مجرور على انه صفة بعد صفة لذي ٠ بمثله : جار ومجرور في موضع نصب مفعول لاسم الفاعل وهو معتقل كأنه قال معتقل مثله (بفتح اللام) ٠ غير : مجرور على انها صفة لمعتقل (وقد شكلها محقق ياقوت بفتح الراء) ٠ الوكل : العاجز الذي يتكل على غيره ٠
(١١) حلو ٠٠ مر ٠٠ في الصفدي صفة لذي في البيت الذي تقدم ٠ وكذلك ورد شكلها في غ ٠ أما (ل) ومحقق (يا) فاختار الضم ٠
غ ، يا ، خ ، ص مزجت ٠٠ منه : لعبت ٠٠ فيه ، ل ٠ ل ٠ غ ، بقسوة : بشدة ، غ ، يا ، خ ، ص ٠
(١٢) ورد بكسر الواو ، وجاءت بالفتح في ع ، يا ٠ السرح : المال السائم ٠ السوام : المال الراعي ٠
منعته النوم بالمحادثة ونحن في ليل قد أقبل بالنوم على العيون ٠

والركبُ ميلٌ على الاكوار من طربٍ
صاحٍ ، وآخرَ من خمر الكرى ثَمِلِ[١٣]

فقلتُ أدعوكَ للجُلى لِتَنصُرَني
وأنت تخذُلني في الحادث الجللِ[١٤]

تنامُ عَنّي وعينُ النجمِ ساهرةٌ
وتستحيل وصَبغ الليل لم يحُلِ[١٥]

فهل تُعينُ على غَيٍّ هممتُ به
والغيُّ يزجر أحيانا عن الفشلِ[١٦]

اني اريد طروقَ « الحي » من « اِضمٍ »
وقد حماه رماة الحي من « ثُعَلِ »[١٧]

---

(١٣) ل ، غ ، ص ، الكرى : الهوى ، يا ، خ ٠

طرب بكسر الراء في (غ) ، وقال (ص) بكسر الراء ، اسم فاعل هنا وليس مصدرا فتفتح الراء لانه لو كان مصدرا لفسد المعنى ، وكان الجار والمجرور مفعولا من أجله وكان قوله وآخر من خمر الكرى معطوفا على غير شيء ولم يتعلق بما يربطه ٠٠٠ وآخر معطوف على طرب ولم ينجر لانه غير منصرف ٠ ووردت طرب في (ل) وعند محقق ياقوت بفتح الراي ، ووردت آخر في (غ) ويا بضم الراء ٠

ميل : جمع أميل وهو الذي لا يستوي على السرج ٠ والطرب : خفة تلحق الانسان لشدة حزن أو سرور ٠ يقول الصفدي انه هنا يحتمل أن يكون من الفرح وان يكون من الحزن ، ولكنه الى الحزن أقرب لانه جاء في سياق شدة السهر ٠

(١٤) غ ، يا تخذلني (بضم الذال) : تخذلني (بكسر الذال) ، ل ٠
الجلى : الامر العظيم ٠

(١٥) غ ، يا ، ص ، عني : عيني ل ، خ ، يا ، خ الليل : النجم ، ل ، غ ٠
تستحيل : تتغير ٠ الصبغ بالفتح اللون وقد وردت كذلك في غ ، ص ٠
وفي ل ، يا بالكسر ٠ وهو ما يصبغ به ٠

(١٦) ل ، يا ، خ ، ص ، يزجر : يصدف ، غ ٠
الغي : الضلال ٠ الفشل : الجبن ٠
هل لك أن تعين صاحبك على غي هم به ، فان الغي يمنع الانسان في بعض الاوقات عن الجبن ٠

(١٧) غ ، يا ، خ ، ص ، الحي : الجزع ، ل ٠ يا ، خ ، ص ، حماه : رماه ، ل : حمته ، غ ٠ ل ، يا ، ص ، رماة : حماة ، ل ٠ في ل ، رماة الحي =

يحمـــون بالبيض والســـمر اللدّان بـــه
سـودَ الغـدائر حمرَ الحَلى والحُلل[18]
فسر بنـــا في ذمـــام الليـــل معتفسا
فنفحـة الطيب تهدينـــبا الى الحِلل[19]
فالحيُ حيث العـــدا والاســـدُ رابضةٌ
حول الكِناس لهـــا غاب من الأســل[20]
نـؤم ناشـئةً « بالجـــزع » قـــد سُـقيت
نصالُهـــا بميـــاه الغُنْج والكَحَل[21]
قـــد زاد طيبَ أحـاديثِ الـكرام بهـــا
مـا بالـكرائم مـن جُبن ومـن بَخَل[22]
تبيتُ نـارُ الهـــوى منهـــنَّ في كبـــدِ
حرّى ، ونار القِرى منهـم على القلل[23]

= من ثعل ، وفي غ ، حماة الحي من ثعل • وفي يا ، خ ، ص : رماة من بني ثعل •
أضم : جبل بأرض المدينة • ثعل : أبو حي من طيء وهو ثعل بن عمرو •
وبنو ثعل مشهورون باتقان الرمي •

(١٨) غ ، يا ، خ ، ص ، به : بهم ، ل •
به : الضمير يعود الى الحي • الحلل : جمع حلة وهي البردة اليمانيـة ،
والحلة ازار ورداء ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين •

(١٩) ل ، يا ، خ ، ص ، ذمام : ظلام ، غ • غ ، يا ، خ ، ص ، معتسفا
فنفحة : مهتديا بنفحة ل •
معتسفا ، اعتسف مشى على غير هداية ومعرفة • الحلل جمع حلة : بيوت القوم •
سر بنا في ذمة الليل فانه يسترنا ، واعتسف السير ولا تخش الضلال عن
طريق الحي ، فان نفحة الطيب من أهله ترشدك الى الحلة التي هم بها نزول •

(٢٠) ل ، يا ، خ ، ص ، العدا : العدى ، غ •
الكناس : موضع الظبي • الاسل : الرماح •

(٢١) الجزع : منعطف الوادي • النصـال : جمع نصـل وهو حديدة
السيف والسهم • وهنا ، نصالها التي تحميها •

(٢٢) ل ، يا ، ص ، طيب : غ ، طيب • ل ، بخل (بفتحتين) غ ، يا : بخل
(بضمتين) ل والجبن والبخل صفتان محمودتان في النساء ••• برأي القدماء •

(٢٣) غ ، يا ، ص ، القلل : قلل ، خ : قبل ، ل •
نساء الحي حسان ، ورجاله كرام •

يقتُلْنَ أنضاءَ حب لا حَراكَ بها
وينحرون كرامَ الخيل والابل[٢٤]

يُشفىُ لديغُ العوالي في بُيوتهم
بنهلة من غدير الخمر والعسل[٢٥]

لعلَّ المامةً « بالجِزع » ثانيةً
يدِبُّ منها نسيمُ البُرء في عللي[٢٦]

لا أكره الطعنةَ النجلاءَ قد شُفِعَتْ
برشقة من نبال الاعين النُّجُل[٢٧]

ولا أهابُ الصِّفاح البيضَ تُسعِدُني
باللمح من خَلَل الاستار والكِلل[٢٨]

ولا أخِلُّ بغِزلان اُغازلُها
ولو دهتني أسود الغِيل بالغَيَل[٢٩]

---

(٢٤) بها ، ل ، غ ، خ : ص ، بهم : به ، يا · ل ، غ ، خ ، ص ، ينحرون : يحتوين ، يا ·
أنضاء : جمع نضو ·

(٢٥) غ ، يا ، خ ، ص ، العوالي : الغواني ، ل · ل بيوتهم : بيوتهم ، غ ، ومن الخطأ المطبعي في يا كسر الياء · غ ، يا ، خ ، ص · غدير : لذيذ ، ل ·
ان الذي تطعنه الرجال بالرماح ، متى ارتشف شربة واحدة من ريق هذه الفتيات شفي ·

(٢٦) غ ، يا ، خ ، ص ، عللي : علل ل ·

(٢٧) غ ، يا ، خ ص ، برشقة : برشفة ، ل : بردفة ، المطبوع · كأنه يهون على صاحبه ما توهمه من بأس رجال الحي لما أخذ يصفهم بالشجاعة والغيرة ·

(٢٨) غ ، يا ، خ ، ص ، الصفاح : صفاح ، ل · يا ، خ ، ص ، من خلل الاستار : من صفحات البيض ، ل ، غ ·
تسعدني : تعينني · الخلل الفرجة بين الشيئين والجمع الخلال مثل جبل وجبال ، هكذا في الصفدي ، وقد كسر محقق ياقوت الخاء ·

(٢٩) ل ، غ ، ص ، أغازلها : تغازلني ، يا ، خ · غ ، الغيل بالغيل : الغيل (بفتح الغين) ل : الغيل بالغيل (بفتح الغين الاولى وكسر الثانية) يا ·

حبُّ السـلامةِ يَثني همَّ صاحبـه
عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسلِ (٣٠)
فان جنحتَ اليـه فاتَّخـذ نَفَقـاً
في الارض أو سـلَّماً في الجو فاعْتزل (٣١)
ودعْ غمـارَ العلى للمقدِمين على
ركوبهـا ، واقْتنع منهـنَّ بالبلل (٣٢)
رضى الذليـل بخفض العيش مسكنةٌ
والعزُّ عند رسيم الاينق الذُّلُل (٣٣)
فادرأ بهـا في نُحـور البيـد جافلةً
معارضاتٍ مثاني اللُّجمِ بالجُدلِ (٣٤)

---

(٣٠) ل ، غ ، يا ، خ ، ص ، همّ : عزم يا (طبعة مارگوليوث) ٠
ان ملت الى حب السلامة فادخل في نفق في الارض أو اصعد في سلم في الجو ، لان السلامة متعذرة عليك ما دمت بين الناس ولا سبيل الى النزول في النفق ولا الى الصعود في سلم في الجو ، اذ لابد لك من الناس ، والسلامة فيهم عزيزة ـ وفي هـذا تحريض على الحركة والسعي والاجتهـاد في احراز المعالي ، لان السـلامة ممتنعة ، فالاولى بالانسان الطلب والسعي الى المعالي ٠

(٣١) غ ، يا ، خ ، ص ، سـلما : مصعـدا ، ل ٠ غ ، ل ، يا ، ص ، فاعتزل : واعتزل ، خ ٠

(٣٢) ل ، ص ، غ ، العلى : العلا ، يا ، خ ٠
غمار : جمع غمر وهو في الاصل الشدة والزحمة ، وفي الماء : اللجج ٠

(٣٣) ص ، رضى ، خ ، رضـا : يرضى ، غ ، ل ، يا ٠ ص ، يا ، خ ، مسكنة : يخفضه ، ل ، غ ٠ ع ، ل ، ص ، عند : تحت ، يا ، خ ، ص ، يا ، خ ، الاينق : الانيق ، غ ، ل ٠
الرسيم : ضرب من سـير الابل ٠ في الاينق قال الصفدي : جمع الناقة تقديرها فعلة بالتحريك لانها جمعت على نوق مثل بدنة وبدن وخشبة وخشب وقـد جمعت في القلة على انوق ، ثم انهم اسـتثقلوا الضمة على الواو فقدموها فقالوا أونق ٠٠ ثم عوضوا من الواو ياء فقالوا أينق ٠

(٣٤) غ ، يا ، خ ، ص ، البيد : الخيل ، ل ٠ غ ، يا ، الحدل (بضم =

ان العــــلى حدّثتني ، وهـــي صادقـــةٌ
فيمـا تحـدث ، أن العـز في النُقـــل[٣٥]

لــو أنّ في شــرَف المـأوى بلـوغَ مُنىً
لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارَةَ الحَمَل[٣٦]

(٤)

أهبتُ بالحـــظّ لـــو ناديتُ مستمعـــا
والحــظُّ عنّيَ بالجُهـــالِ في شُـــغلِ

لعـــله ان بـــــدا فضـلي ونقصُهُمُ
لعينـه ، نـــام عنهـــم أو تنبّـهَ لي[٣٧]

اُعللُ النفسَ بالآمـــــال أرقُبُهـــــا
ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحةُ الامـل[٣٨]

لــم أرتضِ العيشَ والايـــامُ مقبـلةٌ
فكيف أرضى وقـد ولّتْ عـلى عَجَل[٣٩]

= الجيم والدال) : الجدل (بضم الجيم وفتح الدال) ، ل ٠

ادرأ : ادفع ٠ جافلة : مسرعة ٠ معارضات : مماثلات ، مباريات ٠ مثاني : جمع مثنى أي اثنين اثنين ٠ اللجم : جمع لجـام ٠ الجدل : جمع الجديل وهو زمام الناقة المجدول أي المحكم الفتل ٠

ادفع بالنوق والخيل في القفار مسرعة ، فعارض لجم الجيل بأزمة النوق ـ حثا منه على السير ٠

(٣٥) غ ، يا ، خ ، ص ، فيما : في ما ، ل ٠

(٣٦) غ ، يا ، خ ، ص ، منى : عليّ ، ل ، ابن جماعة ٠ (ومن الخطـأ المطبعي كسر الميم في يا) ٠

الدارة : هي ـ في الاصل ـ ما يدور حول الشيء ، وتكون للقمر والشمس ، واستعملها الشاعر للحمل ٠ والحمل : أول برج من بروج الكواكب الاثني عشر ٠

(٣٧) لعله ، الهاء تعود الى الحظ ٠

(٣٨) غ ، يا ، خ ، ص ، الامل : الاجل ، ل ٠

(٣٩) ل ، ص ، لم أرتض : لـم أرض بالعيش ، غ ، يا ، خ ، غ ، يا ، خ ، ص ، وقد : فقد ، ل ٠

غالى بنفسي عِرفاني بقيمتها
فصُنتها عن رخيص القدْر مبتذَلِ

وعادة النصل أن يزهى بجوهره
وليس يعمل الا في يَدي بَطَل(٤٠)

ما كنتُ أُوثر أن يمتدَّ بي زمني
حتى أرى دولةَ الاوغاد والسفَل(٤١)

تقدمتني اناسٌ كان شوطُهُم
وراء خطوي اذ أمشي على مَهل(٤٢)

هذا جزاء امرئٍ أقرانُهُ دَرَجوا
من قبلِه فتمنى فُسحةَ الاجل

وان عَلاني مَنْ دوني فلا عَجَبٌ
لي أُسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَل(٤٣)

فاصبر لها غيرَ محتال ولا ضَجِرٍ
في حادث الدهر ما يُغني عن الحيل(٤٤)

---

(٤٠) غ ، يا ، خ ، ص ، وليس : فليس ، ل .
النصل : السيف .
عادة السيف أن يفخر بجوهره ، ولكن المراد منه القطع ولا يكون ذلك منه الا اذا كان في يدي بطل يضرب به فيصيب .
انني في ذاتي كالسيف المجوهر لما حزته من العلوم وملكته من ممارسة الامور وسياستها ، ولكن لا نفع لها ، لانها كامنة ، فلو باشرت أمرا أو توليت ولاية ظهرت محاسني في الخارج وبرز في الظاهر نفع ما لدي .
(٤١) ل ، يا ، السفل (بفتح السين) : السفل (بكسر السين) ، غ . وهذا دليل سوء الحال .
(٤٢) ل ، يا ، خ ، اذ : لو ، غ ، ص .
(٤٣) الشمس في الفلك الرابع ، والزحل في الفلك السابع .
أخذ يسلي نفسه ويتأسى .
وان علاني هؤلاء الذين ذممت دولتهم وأيامهم وهم دوني في كل شيء ، فان لي اسوة بكون الشمس منحطة عن زحل .
(٤٤) غ ، يا ، خ ، عن : من ، ل .
لها : الضمير يرجع الى معهود في النفس لم يذكر وهي المقادير أو الايام =

(٥)

أعدى عدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل (٤٥)
وانما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعول في الدنيا على رجل
وحسن ظنك بالايام معجزة
فظن شرا وكن منها على وجل (٤٦)
غاض الوفاء ، وفاض الغدر وانفرجت
مسافة الخلف بين القول والعمل
وشان صدقك عند الناس كذبهم
وهل يطابق معوج بمعتدل (٤٧)
ان كان ينجع شيء في ثباتهم
على العهود فسبق السيف للعذل (٤٨)

= والحوادث • غير محتال : مسلما • حادث الدهر : ما يحدثه • الحيل : جمع حيلة وهي الفكرة في بلوغ القصد بطريق خفي على غيرك •

اصبر للنوائب صبر من لا يحتال ولا يقلق لنزولها ، فان في حادث الدهر ما يغني عن الحيل ، ويأتيك بما لا تقدر عليه بحيلك وحولك •

(٤٥) الدخل : المكر والخديعة •

•• خذ حذرك من الناس واصحبهم بالخديعة والمكر ، ولا تركن الى أحد ممن وثقت به وظننت انه صديقك لانه أشد عداوة من كل عدو •

(٤٦) ـ (٤٧) ل ، يا ، خ ، ص ، وحسن ••• غاض ••• غاض : غاض ••• وحسن ، غ • ل ، وكن منهم : وكن فيها ، غ ، وكن منها ، يا ، خ ، ص •

(٤٨) ل ، يا ، ص ، يطابق (بفتح الباء) : يطابق (بكسر الباء) ، غ •

ان كان شيء من الاشياء نافعا في ثبات الناس على العهود وذلك الشيء مثل اللوم والعذل على ما ارتكبوه من نقص الوفاء واظهار الغدر فان السيف سبق العذل في ذلك • يعني ان هذا الامر فات وما بقي يفيد فيهم العذل شيئا ، كما ان السيف يسبق من يعذل ويفوت الفوت في كفه بعدما يمضي • لا تطمع في عود رعيهم للعهود كما ان المقتول لا يطمع في حياته •

(٦)

يـــا وارداً سُـؤرَ عيش كلـــه كـدَرٌ
انفقت صفـــــوك في أيامــك الأُول[٤٩]

فيـــم اقتحامْــك لُجَ البحـــر تركبُـــه
وأنت يكفيــك منــــه مصّةُ الوشـــل[٥٠]

ملكُ القنـــاعة لا يُخشى عليــــه ولا
يُحتـاج فيــه الى الانصـــار والخَوَل[٥١]

ترجــو البقـــاءَ بـدار لا ثبـــاتَ لهـــا
فهــــل سـمِعت بظـلٍ غـــير منتقـــل

ويـــا خبـيراً عـلى الاســـرار مطّلعــاً
اصْمُتْ ففي الصمت منجاة من الزلل[٥٢]

قـــد رشّـحوكَ لأمـــر لــو فطِنتَ لـه
فاربأ بنفســك أن ترعى مـع الهَمَـل[٥٣]

---

(٤٩) ع ، يا ، خ ، ص ، صفوك : عمرك ، ل ، غ ٠
وهذا البيت يسميه أرباب البلاغة التجريد ، وهو أن يجرد الانسان من نفسه شخصا يخاطبه فهو يستريح بمعاتبته وتعنيفه وتوبيخه ٠

(٥٠) غ ، يا ، خ ، ص ، فيم ، ص : في مــا ، ل ، يا ، خ ، ص اقتحامك : اعتراضك ، غ ، ل ٠ أخذ يريض نفسه ويسكن سورة غضبها بعد أن كان قد ثار واحتدم واحتد واضطرم ٠

(٥١) الخول : الحشم ، العبيد ٠
ان ملوك الدنيـا يحتاجون الى الخول والانصار للخدمة ، والى العساكر ليحفظوا البلاد ، فيضطرون الى أموال ينفقونها ٠ ثم هم مع ذلك في هم وفكر في تحصيل الاموال وتدبير الرعايا في خوف وحرص ٠

(٥٢) غ ، يا ، خ ، أصمت : أنصت ، ل ٠

(٥٣) غ ، ص ، ان فطنت له : لو ، ل ، يا ، خ ٠
رشحوك : فلان يرشح للوزارة أي يرى ويؤهل ٠ الهمل : الابل بلا راع ٠
قد ربوك واهلوك لامر ان كنت تعلم باطنه في مرادهم منك ، فاهرب منهم ولا تطاوعهم على ما يرومونه منك ان أردت أن لا ترعى هاملا فتعود سدى ٠
يحذر نفسه من أعاديه الذين يسعون في قهره وحساده الذين يريدون هلاكه ويتمنون وقوع الاذى به ٠

٢

التحليل والتعليل

(١)

يفخر الطغرائي بأصالة رأيه وبفضله وبمجده •• وليس لاحد أن يكذبه في دعواه وهو الذي بلغ في عصره المنزلة المرموقة علما وأدبا وسياسة ••

ولكن ، لم هـذا الفخر ؟ وما الداعي اليه ؟ انه مشوب بشيء من الشـكوى والمرارة ، لقد فقد صاحبه شيئا عزيزا عليه ، قد يكون أهم ما يملك ، وأكبر ما يرى في الحياة ، وفيه عزته وكبرياؤه • واذا ما أصيب المرء بمثل ذلك خف الى رصيده الاول ، يستنجده ويستعينه • وهكذا ، يكون الفخر ، تعويضا عن الفقد ، وتعزية لنفس مضامة ، وتغطية لخيبة ، وتماسكا أمام هذا الناس الذي ألفه على غير ما حل به وصار اليه •

ولو كان فخرا للفخر ، لما كانت هذه الـ « فيم » ، « فيم الاقامة بالزوراء ؟ » ، ان فيها أسىً شديداً وعتابا للنفس مراً ، انه استفهام صدر عن أعماق نفس متألمة وغير راضية عن اقامتها في بغداد ، ودعوة الى الهجرة ، وتبرير لهذه الدعوة بأكثر من سبب ، فهو في موقف من يريد أن يقنع شخصا آخر ما زال مشدودا الى بغداد بشيء ، فوالى الادلة الداعية الى الهجرة • ليس للشاعر في مدينة السلام أهل أو

عمل أو مال أو صديق ، وانه قد طال اغترابه واشتد به الحنين ، ولابد من العودة ، رضي أم لم يرض •

واذا تركنا المكابرة جانبا ، وتناسينا مسألة الاغتراب والحنين وما الى ذلك من الالفاظ التي هي « شعر » وتبرير أكثر منها واقعا ، رأينا انه لابد من العودة اعترافا بالواقع وخضوعا للمنطق •

لقد جاء الطغرائي بغداد وأقام فيها من أجل شيء عزيز عليه ، سعى نحوه حثيثا وطويلا ، ألا وهو « الصدارة » أو « العلى » ـ كما سماه • لقد قصدها فرحا وخف اليها طربا وحسبها الجنة الفيحاء والدنيـا السـعيدة • ولم لا ؟ وما قيمة الاقامة في مسقط الرأس ؟ انها تورث الخمول والفقر ! واليوم يحدث ما يحدث ، فيصاب الرجل في طماحه ، فاذا بغداد غير بغداد أمس ، لقد أنكرها ، وتنكر لها • وبغداد هي هي ، وما للطغرائي معها عداوة خاصة ، أو كره معين ، انما ينطق تحت وطأة ظرف قاس •

واذاً فما عليه الا أن يرجع ، أي يقتنع بالرجوع • وهذا هو القول الصحيح •• أما الحنين فمسألة طارئة جاءت علة لنكوص عن غاية ، ودعوة لتمويه عن دعوة أخرى ، ويقظة لأمر ثانوي كان راقدا يغط في رقوده • والا ، فأين كان أمس هذا الحنين ؟ لقد أمضى الرجل عمره في الاسفار والغربة والاقامات البعيدة عن « الاهل » والوطن •• فلم يبد عليه مثل هذا الحنين الجامح !

مهما يبـالغ المرء في اخفـاء السبب الحقيقي ، يعجز ، حتى لو كان ذلك من امالي العاطفة ، ويعد الى الصراحة وهي أجدى • واذاً فلابد من الرحلة • وطبيعي أن تكون نحو أصفهان حيث الاهل والاحبة وحيث يمكن أن ينعم بالدعة ويسـكن الى الراحة ـ أو الى الكيمياء ، هذا هو الطبيعي •

(٢)

وليس من الطبيعي أن يحدثنا عن أشياء ليست بذات صـلة بما هو عليه من الحالة النفسية وعزم أكيد على الهجرة •

لقد حدثنا عن رحلته ، وعن معدات رحلته ولكن على غير ما انتظرنا ، وعلى غير ما تقتضيه طبيعة الاشياء • فلقد بدأ يتحدث عن رفيقه في السفر مادحاً خلقته وخلقه بين استواء القامة والشجاعة والشدة حينا ، والرقة حينا ••

سار هو ورفيقه في ركب ، حتى اذا أخذ منهم التعب مأخذه ، ومضى من الليل أكثره ، وغلب النوم على هذا الرفيق الذي أعده الشاعر للملمات •

وها هم أولاء يقتربون من الهـدف ، والرفيق نائم أو شـبه نائم ، فيهزه ، ويعاتبه ويوقظه •

ولكن ما الغاية التي دعاها الشـاعر « بالجلى »؟ أول ما يتبـادر الى ذهن من استوعب المقطع الاول ، بلوغ الوطن •• أو •• اذا كان لا بد من الابتعاد عن الجو قليلا •• العلى ، كأن يكون الشاعر قد ثاب الى نفسه فعاود الجد من أجل تحقيق مطمحه •• أما أن يكون غير هذا ، فلا •• أن يكون غيا يحمل الشاعر لان يطرق أحياء الناس الساهرين على أعراضهم ، فيندس تحت ستار الليل الى خدر « امرأة » يدعي انه يحبها ، ويدعي أكثر من ذلك ، بأنها تحبه ، وان في رضابها وتقبيلها •• شفاء لما هو فيه من سقام وعلل •• أما هذا ، فلا • وليس الظرف ظرف غزل ومغامرة هي أشبه بمغامرات امرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة ، وحتى هذان الشاعران لم يكونا ليفعلا ما ادعاه الطغرائي لو كانا مكانه •

اذاً ، لابد من أن يكون في الامر شيء آخر ، أو أشياء اخرى هي غير ما يبدو للنـاظر • فما هو ؟ وما هي ؟

ان أمر الغزل غريب في بابه ، ونشاز في مكانه • ولو جاء في مطلع القصيدة لقلنا انه ضرب من التقليد ، فقد درج شعراء العربية على افتتاح قصائدهم بالغزل • وكل ما يمكن أن يقال في هذه الحالة ، ان الشاعر خضع للتقليد أكثر مما يجب • فلقد اعتدنا ــ أكثر ما اعتدنا ــ أن يكون الغزل في مطالع قصائد المديح • أما في قصيدة تقال في الظرف الذي يعانيه الطغرائي فغير مألوف وغير مستساغ •

ولكنه لم يأت في بداية القصيدة • وهذا ما دعا الى الاهتمام والتساآل • وقد

يدعو تقصي الاسباب والاعذار الى الاغراق والاغراب • وفي سعي من هذا الوادي يلمع في ذهن المرء افتراض خلاصته ان الطغرائي لم يتغزل ، وان هذا الذى يبدو غزلا ليس من الغزل بالمرأة في شيء ، انه غزل بالمجد ، ورمز عن هذا المجد بالمرأة الممنعة الجميلة • ولا يبلغ المجد بيسر ، فلابد من مغامرة ولابد من سهر وأعوان •

الافتراض جميل ، ولو صح ، لكان أجل وأدخل في مسيرة القصيدة وألصق بالحالة النفسية التي يأتزم بها الشاعر ، ولكن تصديقه ليس سهلا ، فما ألف مثله في شعر الطغرائي وشعر عصره وجملة الشعر العربي • ثم ان الشاعر حين جرى في غزله انفصل انفصالا تاما عن الحالة التي كان عليها ، ولم يدع ما يشير الى مجده وطماحه من حرارة أو ابداع[1] • ولم يبق الا غزل تقليدي لا فضل لصاحبه أكثر من التمكن في البناء الخارجي • ولقد بعد عهد أبي اسماعيل بالغزل الصادق فقد نيف على الخمسين وتزوج أكثر من مرة ورزق أكثر من ولد ـ ولات حين غزل • واذاً ، فما عليه الا أن يعمل فكره في جمع عناصر متفرقة من هنا وهناك مما ذاع في الشعر العربي في المرأة والجمال والسرى •• ومما قام منذ قام امرؤ القيس (وقبله) ـ وشتان •

بقى أمامنا مجال آخر ، أن يكون هذا المقطع الغزلي دخيلا على القصيدة ، وقد دسه الشاعر متأخرا عن الظرف الذي نظمها فيه ، في احدى قراءاته ومراجعاته •

اننا اليوم نفضـل أن تكون اللاميـة مجردة من مقطعها الغزلي • ولم يكن تفضيلنا هذا قائما على الاقتراح وعلى الدراسة الداخلية لها فقط • فلقد رويت مرة كما نريد ، رواها ثقة هو أبو الفتح عبدالرحمن بن أحمد بن الاخوة عن الشاعر نفسه ، وقبل أن يكون للشاعر ديوان[2] •

---

(١) لا يخلو من فائدة ان نذكر ما جاء في « أعيان الشيعة » للعاملي ٧٩:٢٧ «•• وفي « الرياض » •• كان (الطغرائي) مشهورا بمعرفة الكيمياء •• ولاشتهاره بعلم الكيمياء قيل عن لاميته •• انها رمز الى علم الكيمياء • وهو خيال فاسد » •

(٢) ينظر ابن جماعة في التعليقة و٧٤ب •

(٣)

أجل ، فما أنسب أن ننتقل من المقطع الاول الى الثالث •• من :

والدهر يعكس آمالي ويُقنعني من الغنيمة بعد الجد بالقفل

الى : حب السلامة يثني همَّ صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

وكأن المقطع الغزلي لم يكن • وهنا تقول ، ومن حقك أن تقول وتعترض بهذا الفرق « الهائل » بين المقطعين : مقطع ينتهي باليأس والاستسلام ، ومقطع يدعو الى المعالي والعلى والعمل وتحمل المشاق وقطع البيد ومواصلة الاسفار ••

وطبيعي ان هذه الاسفار غير الاسفار التي دعا اليها في مقطعه الاول مما يتصل بالهجرة واللياذ بالسكينة في ربوع الوطن •• انها أسفار جديدة ، انها استئناف العمل والسعي ، واستئناف الطمع والطماح ••

اذاً ، لقد اتضح الفرق وبانت الهوة ، وأين الاستسلام من المقاومة غير اليائسة ! والحق معك ، لانك تزن الامور بالميزان المنطقي ، بمنطق العقل ، والعقل ألوان ــ ان شئت • واذاً ، فالفرق هائل ، وسياق المنطق يدل على أن الرجل ، بعد أن يئس قرر الهجرة وحببها الى نفسه ونفذها ــ هذا ما يقوله المنطق العقلي • ولكن المنطق النفسي لا يشترط ذلك ، وانه يجيز ما وقع فيه الطغرائي بل يؤيده ؛ فان هذا الذي بدا تناقضا واضطرابا هو أدل على صدق الشاعر وعلى اعرابه عن حالة حادة يعانيها ، فما يكاد ينتهي الى شيء حتى يثور ويحطم ما بنى ليشيد خطة جديدة لا ينفك يجمع لها الادلة والبراهين •

فهو هنا يدعو الى العمل والى المخاطرة والى قطع البيد ، ويهجن حب السلامة الذي يحول دون المعالي ويغري صاحبه بالكسل ويورثه المذلة والمسكنة ــ وكأنه شاعر آخر غير الذي رأيناه في مطلع القصيدة •

وهو صادق في دعواه ، مطمئن اليها يزجيها بكل تأكد وبغير قليل من النضج والحدة • ولا غرو فهو في شدة وازاء نفس عنود •

(٤)

ولكنه مهما يجمع الادلة ، ومهما يستنجد بعقله الواعي لا يستطيع أن يقنع نفسه ، أو قل ، لا يستطيع أن يصد الالم الطاغي ويدفع الاسى المسيطر • فأين هو من المعالي ؟ ومن العز ! ومن « فادرأ بها » ؟ وواقعه مر ، وحاله يشعر بالخيبة • واذا صعب عليه تعليل الاشياء بما يليق برجل رصين ، انحدر به الضعف الى « الحظ » وكأنه كل شيء ، فهو الذي يأخذ ، وهو الذي يعطي ، فراح يدعوه ويعاتبه ويناقشه ـ وهيهات •

ولمحة من لمحات العقل تريه استحالة ما هو فيه ، وغرور ما هو عليه ، انها أعاليل بأباطيل ، لا تحل مشكلا ـ وان خففت وطأ •

فأين هو ؟ وكيف ينسجم وعصره ؟ انه صعب المراس ، شديد الثقة بنفسه ، معتد بقيمته ، مترفع عن الدنايا • انه لم يرض عن أيام كان فيها معززا مكرما ، فكيف يرضى الآن ، مهما يكن أمره ؟ كيف ••؟ والدولة دولة أوغاد ، والحكم حكم جهال ، وقد علاه من كان دونه بأشواط • كيف يرضى ؟ ذلك بعيد •

لم يكن كاذبا اذ وصف السلطة عام ٥٠٥ بما وصفها ، فذلك مما يؤيده التاريخ • ولكننا نسأله : أين كنت قبل اليوم ؟ انه لم يجد قبل اليوم ما يدعوه لمثل هذه التصريحات ، ولم يكن على الحالة التي تريه حكام عصره على الشكل الحقير والاحقر • كان سجين مطامحه ورهين أمانيه ، كان في طريقه الصاعد لا ينظر يمنة أو يسرة • أما وقد حيل بينه وبين القمة ، فكل شيء واضح ازاءه على حقيقته وعلى أحسن من حقيقته ، وان له من الوقت ما يستطيع معه أن يتبين ويتفحص ويتأمل ويحكم •

بل انه ازاء نفسه وجها لوجه ، هذه النفس التي غررت به وأوقعته في مهاوي الآمال البعيدة وفي « تمني فسحة الاجل » • انه ليعاتبها ويقول لها : تستأهلين ، ذوقي • ولكنه لا يستمر طويلا ، لانه رجل لا ينسى ذاته طويلا ، وله في مجده الماضي أعظم مظهر للتعزية والسلوان ، فهو الشمس وسواه زحل •• واذا انحط

فهو الشمس على أي حال . ومثله لا ييأس ، وما عليه الا أن يصبر ، فاذا ضاقت به الوسائل فليكف عنها ، وليصبر ولينتظر المصادفات و « حادث الدهر » .

من الصعب على امرىء عرف بالطغرائي ورأى ما رأى الطغرائي أن يستسلم بيسر ، ومن دون ثورة نفس وتضارب أفكار وتصادم هواجس وضرب أخماس بأسداس وكبرياء وتعاظم وسخط على الدهر والحظ .

(٥-٦)

كل هذه « عموميات » يرسلها الطغرائي دون تخصيص لانه تحت مجموع الكارثة ، لا يراها مجزأة ولا يحدها بسبب واحد ، انه يتخبط لان الضربة شديدة .. حتى اذا اتضحت الامور قليلا ، قارب التخصيص فصاح :

أعدى عدوك أدنى من وثقت به   فحاذر الناس واصحبهم على دخل

واذاً ، فمن مأمنه أتي الطغرائي واذا أصدقاؤه ألد أعدائه ، لقد أوقعوا به ، وأنزلوه من مجده . ولم يزو على ذلك في التصريح ، كأنه يرى نفسه أكبر من أن تنزل الى مثل هذا الدرك أو كأن المسألة أكبر من ذلك[١] . فلقد ضاقت الدنيا على أشد ما يمكن أن يكون عليه من ضيق ، وانه لم يعد حتى ذلك الطغرائي الذي يكابر وهو في منزلة ذلة ، ويفخر وهو في موطن عزاء ، ويأمل وهو في ميدان يأس .

أجل ، لقد ضاقت وانتهى عالم .. وبدأ عالم أسود ، كل ما فيه يدعو الى التشاؤم بحرارة وحماسة و « صدق » . أهل هذا العالم قوم أعداء ، شيمتهم الغدر ، كذابون ، لا يمكن أن يعيش بينهم امرؤ حسن النية يثق بالآخرين ، صادق ، اذا قال فعل .. انه لعالم حالك وحقير ، ومؤلم أن يكون عالم الانسان .

لقد رأى الطغرائي عالم عصره خلال تجربته الخاصة ، ولكنه ما زال يوسع

---

(١) ومما يذكر انه كان في البائية أكثر تفصيلا .

الخاص ويوسعه حتى جعله عاما • وله في حقيقة السوء الذي كان عليه العصر مساند ، وهكذا يكون قد قدم لنا صورة لزمانه ، ويكون قد استوعب المجتمع الذي احتـواه •

واذا كان العالم كذلك ، والناس كذلك ، أصبحت النتيجة الحتمية واضحة ، وهي نفسها التي انحدر اليها الطغرائي ـ بعد تردد وممانعة ـ ألا وهي اليأس أو القناعة ـ ان شئت •

ولكن نفسا يحملها الطغرائي « لا تقنع » من غير أن تتعب صاحبها ، انها على الرغم مما قاست وعانت ومما انتهت اليـه ، ما زالت تنطوي على بقيـة من طماح وشرارات من أمل •• مما استوجب الحجاج وزيادة الادلة والبراهين : فالعيش كدر ، ومصة الوشل تغني عن البحر ، وملك القناعة لا يخشى عليه ، والدنيا فانية ، والصمت منجاة •• الخ •

ترى هل قنع ؟ يبدو • ولكن ذلك صعب على مثله • ان الادلة التي ساقها تقنع غيره وترضي سواه ، أما هو فاذا رضي فالى حين واذا صمت فعلى مضض واذا يئس فعلى أمل •

٣

اللامية عبر التاريخ

(١)

هـذه اللامية اذاً سجل لأطوار قلب ثائر ونفس طعين ، عبرت عما يكتنف الشاعر من طماح وقناعة وأمـل وألم واقامـة وهجر وحب وكره • ان العواطف لتجرى حارة في عروق القصيدة ، عميقة ، عنيفة ، صادقة ، أصيلة ، بلغة سليمة هي لغة الشاعر العربي المتمكن الكبير •

كل ذلك من غير افتعال وكذب وضجيج مختلق وقرقعة متكلفة ، ولو لم تكن كذلك لما كان لها شأن يذكر حتى اليوم ، ولذهبت مذهب عشرات القصائد التي قامت شهرتها على الزيف وفساد الاذواق والظرف الآني •

لقد أولع عدد من الدارسين برد معاني اللامية الى أصولها ، أو بمعنى أدق رد معنى أبياتها الى أبيات شـعراء سـبقوا الطغرائي ، كأنهـم يريدون أن يقولوا ان الطغرائي أشار اليهم أو أخذ عنهم أو سرق منهم •

ومحاولة رد أبيات الطغرائي الى غيره من أمثـال المتنبي والشريف الرضى والمعري ليست مستحيلة ، أو مطلقة في العبث • وقد عمل ذلك الصـفدي بحسن

نية[1] ، ولعل الذي بعثه سعة علمه وغزارة محفوظه[2] وتطبيق لخطة يجعل بها شرحه للامية كتابا أوسع من « شرح » • ثم ان مبدأ « الرد » مألوف في الدراسات الادبية القديمة ، وظل حيا عبر أجيال حتى انتهى ـ فيما رأينا ـ الى استاذنا المرحوم طه الراوي ، فلقد كتب مقالات يرد فيها اللامية الى غير صاحبها مستعينا بالطريق الذي مهده الصفدي وبالامثلة التي أوردها • ولكنه تميز عن الصفدي بالشدة في الحساب والعنف باللهجة • وأكبر الظن انه كان كذلك بسبب ما كان معلوما من أن الطغرائي فارسي عجمي[3] •

وعلى أي حال فلقد انتهى المرحوم الراوي الى « أن الرجل أغار على المعاني الرائعة لمعاصريه ومن قبلهم فاعتصر منها خلاصاتها ، ثم صبغها بالالوان البراقة الجذابة ، وأبرزها للناس على انها نتاج قريحته ، ووليدة يراعته ، فأفتن الناس ببريق تلك الالوان ، ونسوا ما وراءها من سبايا المعاني البارعة التي لو أطلقناها من عقال الوزن والقافية لرجع كل الى أصله واعتز بانتسابه لاهله ، ونحن لا نريد أن ننكر على الرجل انه من بدعة الصاغة ، ومهرة المصورين ولكنا لا نشك في أنه أقدر الناس على الانتفاع بنتاج غيره موهما انه من نتاج فكره »[4] •

ومن يقرأ الصفدي وما ربطه بين أبيات الطغرائي وأبيات سابقة (ولاحقة) يحس بأن في هذا المذهب كثيرا من الجهد الضائع والتعسف ، ولكنه لون عقلي يحقق لصاحبه البراعة أمام الناس ثم ان بعض الروابط لا تخلو من طرافة وصحة حتى ان القارىء ليقتنع بصحة علم الطغرائي أو قصده في الاخذ أحيانا • ولم يبد أن الصفدي كان يقصد الى التشفي أو الى الحط من شأن الطغرائي ولا أن يمهد للحط من هذا الشأن • ذلك أن شيئا من الربط بين معنى بيت أو أبيات لشاعر كبير مع بيت أو أبيات لشاعر سابق مألوف في الشعر العربي ، وقد أطال الباحثون درس

---

(١) الصفدي ، الغيث ••

(٢) السبكي ٦:٩٤ ، العسقلاني ٢:٨٧ •

(٣) الراوي ، الصبح • وزاد ولده الاديب حارث ان المرحوم والده كان يحب بغداد حبا جما ، وربما كان لموقف الطغرائي منها أثره في ذلك •

(٤) نفسه ٤:٦ •

هذه الظاهرة وكانت لهم ـ والآمدي[٥] في مقدمتهم ـ آراء صائبة في الانصاف وفي التمييز بين ما كان سلخا أو سرقا أو أخذا وبين ما كان تجميلا وتأثرا غير مقصود •

حقا ان بين أبيات اللامية ما يتصل بالبيت الفلاني والفلاني من شعراء سبقوا ، ولكن هذا الاتصال لو كان أخذا وسرقا لما كان للامية شـأن كبـير ، مهما أوتي صاحبها من مهارة وقدرة على السبك والرصف والصياغة • ان شعر التمكن لا يدوم طويلا ، ولا ينطوي على قوة وعنف مما تنطوي عليه الآثار الاصيلة • وانه ـ أي شعر التمكن انما يضطر اليه الشاعر عندما يتكلف المواقف ويقصد من شعره الى المسابقة الشكلية ، وعندما يقول وهو هادىء النفس غير منفعل وفي موقف لا يمت اليه بسبب قوي • ولم يكن الطغرائي كذلك ، لقد كان متمـكنا ـ دون شـك ، وبارعا دون ريب ـ ولكنه كان منفعلا ، وكان يتحدث بعمق وصدق عن أوصـل الاشياء بكيانه ـ ولات حين سرقة وتفكير بالسرقة •

ولنبدأ بالبداية • قال الطغرائي :

أصالةُ الرأي صانتني عن الخطل — وحلية الفضـل زانتني لدى العطل

فعبر بذلك عن القمة النفسية التي كان عليها والتي دعته الى قول الشعر بعد امتلاء نفسه بالكارثة التي حلت به ولم يجد ما يقوي به وجوده غير الرصيد القديم وغير الاستعلاءُ عن صغائر أمور الدنيا ؛ الحالة حالته ، ولقد عبر عنها كما يجب وكما يشاء • أما الالفاظ فهي ألفاظ العربية وليس لاحد أن يقول ان (اصالة) هي لفظة فلان و (الخطل) لفظة فلان و (العطل) لفظة فلان • انها لو كانت كذلك لما جاءت على هـذه القوة •

ويأتي الصفدي[٦] فيشرح ويعرب ويفسر ثم يقول : قال الشريف الرضى :

ان يبـل ثوبي فاني أكتسي حسبي — أو ترد خيـلي فاني راكب منني
لقـد تقـدم بي فضـلي بـلا قـدم — أعظم بأمر على ذي السن قدمني[٧]

---

(٥) الآمدي : الموازنة بين الطائيين ••
(٦) الصفدي :١:٥٠ •
(٧) ينظر الديوان ١:٥٤٣ •

ويذكر بعد ذلك أبياتا لشعراء آخرين لا قيمة لها وبينها ما هو لشعراء متأخرين عن الطغرائي ولا يربطها الا بما يتوهم ، وما يمكن أن يكون من قرابة في المعنى العام . ذلك منهجه . ولكن ماذا يعني ذكر بيتي الشريف الرضي ؟ يعني الشبه في الحالة التي عبر عنها الشاعران والتي دعتهما لان يفخرا ، ويفخرا بفضلهما غير مباليين ببهرج الدنيا من ثياب وزينة . وليكن . وحسنا فعل الصفدي اذ لم يقل ان فلانا أخذ أو سرق من فلان ، ولم يقل ان بيت فلان خير من بيت فلان . وان « الشريف لم يكتف باكتساء ثوب الحسب ، حتى ركب خيل الكرم . والطغرائي لم يزد على أن وضع الحلية موضع الثوب واني لعلى ثقة بأن الذوق السليم يستحلي كلمة الشريف ويفضل ثوبه على حلية الطغرائي لان الرجال خليقون بأن يتجملوا بالثياب ، أما الحلية فمن خصائص ربات الحجاب[8] .. » ان هذا ما لم يمر من الطغرائي ببال ، وما لا يمر ، ، ولا ينسجم والحالة التي هو عليها ، وما كان موقفه موقف حلية « نساء » ، انما كان جلال رجال ، وكان حلية فضل ان أردنا الصراحة . ولم يكن بين كلمتي الفضل والحلية فاصل .

وقال الطغرائي :

مجـدي أخيرا ومجـدي أولا شـرع
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفـل

وهو تتمة طبيعية لسابقه وتجسيد للأزمة التي وقع فيها الشاعر ، ولم تحل (رأد) و (طفل) دون فهم البيت ، ولم تكن الكلمتان من الغرابة والثقل بحيث يكدران الصياغة :

ويقول الصفدي : « وقد أخذ الطغرائي هذا المعنى من قول أبي العلاء المعري حيث قال :

وافقتهم في اختـلاف من زمانـكم   والبدر في الوهن مثل البدر في السَّحر

فهذا هذا ، خلا ان ذاك في الشمس وهذا في القمر ، ولكن قول المعري

(٨) الراوي ، ٦:٢ .

ألطف عبارة وأحسن اشارة لأن الطغرائي أغرب في لفظتي رأد والطفل وعذوبة الالفاظ أمر مهم في البلاغة[٩] •• » .

ان القرابة بين الشطر الثاني للبيتين قائمة ، ولكن هل كان بيت المعري حاضرا في ذهن الطغرائي وهو ينظم ما يعاني ويكابد ؟ لقد سمح الصفدي لنفسه أن يجزم بالاخذ • وقد يكون له ما يبرر ، لكن ما باله يقول ان بيت المعري ألطف اشارة ، ويقول ان الطغرائي أغرب •• ليس من حقنا أن نتخذ من الغرابة والسهولة سلاحا ذا حدين • ولو سمحت لنفسي بمثل ما سمح به الصفدي لفضلت بيت الطغرائي ، ولكن لا داعي لذلك •

وقال الطغرائي :

فيم الاقامة بالزوراء لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

وهو منسجم تمام الانسجام مع سابقيه ، بل انه المعنى الطبيعي الذي جرّاه اليه ، وسبقا لتقديمه • فماذا قال الصفدي ؟ قال : « •• انظر الى قلقه في بيت الطغرائي لانه عطف الناقة والجمل على السكن ، ولو عطف ما يناسب ذلك من أهل وولد لكان أحسن وأوقع في النفس[١٠] » ، هكذا فهم الصفدي ، لانه من قوم يقيمون نقدهم على المعاني القاموسية واللفظة ومعناها ، فرأى في البيت سكناً وناقة وجملا ، فرأى قلقا ، أما نحن فنرى ما رآه الطغرائي : سكناً ومالاً ، ذلك ان « لا ناقتي فيها ولا جملي » تعني المال ، وتستطيع أن تقولها ـ كما هو الشأن في الامثال وأبواب التجوز ـ في مواقف لا صلة للناقة والجمل فيها • كما هو في بيت الطغرائي وكما هو في الحال التي كان يحس بها[١١] » •

وقال الطغرائي :

ناءٍ عن الاهل صفر الكف منفرد كالسيف عُرِّيَ متناه عن الخِلل

---

(٩) الصفدي ١:٥٢ •

(١٠) الصفدي ١:٧١ •

(١١) ذكر الميداني ٢:١٤٤ • ط بولاق ١٢٨٤ : « يضرب المثل عند التبري من الظلم والاساءة » •

وقال الصفدي : « وما أحسن ما كشف المعري هذا المعنى بقوله :

وان كان في لبس الفتى شرف له　　فما السيف الا غمده والحمائل

وقال البحتري يعزي بولد :

تعزّ فان السيف يمضي وان وهت　　حمائله عنه وخلاه قائمه

وقال النمر بن تولب :

فان تك أثوابي تمزقن عن فتى　　فاني كنصل السيف في خلق الغمد

وقال لبيد بن ربيعة :

فأصبحت مثل السيف أخلق غمده　　تقادم عهد القين والنصل قاطع[١٢]

وليس لاحد أن يجرؤ فيقول ان الطغرائي سرق معناه من سابقيه ، بل اننا لنسائل عن سر ذكر هذه الابيات التي ورد فيها « السيف » .. ان ذلك ما يمكن أن يخيل الى القارىء ان الطغرائي يسرق ـ وصدق الراوي اذ قال « ان هذا المعنى ملقى على مدرجة السابلة »[١٣] .

اننا لو أردنا أن نتبع مذهب الصفدي وتابعيه أطلنا وأتعبنا دون نتيجة . وما يمكن أن يقال في أبيات لامية الطغرائي يمكن أن يقال في كل قصيدة مناظرة . ومع هذا ، لنقف عند البيت :

وضج من لغب نضوي وعج لما　　ألقى ركابي ولج الركب في عذلي

فقد قال الصفدي : « في قوله وضج من لغب نضوي غنية عما يقول فيما بعده : وعج لما ألقى ركابي ، لان المعنى واحد ، فكل منهما يغني عن ذكر الآخر ، فان ضجيج النوق هو عج الركاب[١٤]» .. وقد أخذ بيت الشريف الرضي برمته

---

(١٢) الصفدي ١:٨١ .
(١٣) الراوي ٦:٣ .
(١٤) الصفدي ١:١١٢ .

من قوله :

•• ووقفت حتى ضج من لغب   نضوي ولج بعذلي الركب[١٥]

أما أن يكون الطغرائي قد أخذ بيته من بيت الشريف الرضي فذلك ما لا يحتاج الى نص ، ولا الى ضجيج وانه ما لم يرد الشاعر اخفاءه بعد أن أخذه بنصه • ولنتذكر ان الطغرائي الآن في « مقطع الغزل التقليدي » من اللامية • واذاً فلسنا بصدد الاصالة والحالة النفسية ، انما هي صناعة وبراعة في الصياغة • والحقيقة ان الصفدي بالغ عندما آخذ الطغرائي على : « وعج لما •• » كأنه يريد أن ينفي من طرائق اللغة العربية الازدواج وما يشبهه ، وكأنه يجهل الايقاع الموسيقي الذي ولد من توالي ضج وعج ولج ••

كما ان من يقول :

تقدمتني اناس كان شوطهم   وراء خطوي اذ أمشي على مهل

لا يضمر اخفاء المصدر الذي أخذ منه ، فما كان الشريف الرضي نكرة ، وقد قال :

فلِم أنا كالغريب وراء قوم   لو اختيروا لقد كانوا ورائي[١٦]

ولكن الحالة واحدة ، وجاء بيت الطغرائي منسجما كل الانسجام مع ما قبله وما بعده ، وقد يكون أمتن وأعنف من بيت الشريف الرضي ، الا أنّ الصفدي لم يذكره ، ولم يشر اليه •

وبعد

فمن الظلم أن نجرد اللامية من كل معنى أصيل ، وأن نتهم صاحبها بأنه استل معانيه من غيره الماما وسرقة وسلخا • فنحن لا نشك أن الطغرائي حفظ كثيرا واعجب بروائع الشعر العربي وبالشريف الرضي ، وانه اختزن ما حفظ ، وتسرب

---

(١٥) نفسه ١:١١٦ •
(١٦) ديوان الشريف الرضي ١:١٧ •

نسغ منه الى أشعاره ، ولكن اللامية جاءت أصيلة أعربت عن حالته النفسية التي عاناها هو من دون تلكؤ ومن دون ما يشير الى انه كان يعمد الى التقليد والمعارضة والاخذ ، فلقد كان من السيطرة بحيث أعرب طواعية وجرى هدارا • واذا ما ورد على لسانه ـ وهو في هذه الحالة ـ لفظ أو معنى أو تركيب لآخرين فذلك مما أملته الحالة المشابهة ومما انساب انسيابا ، ومما يدخل بعضه في باب التضمين • وما كان الطغرائي من الغباء بحيث يجهل ان الناس يعلمون ان المعري قال :

واني جواد لم يحل لجامه وعضب يمان أغفلته الصياقل

وان امرأ القيس قال :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

(٢)

وما قيل في المعاني يمكن أن يقال في وجوه البلاغة العربية ، وانك لواجد في اللامية كثيرا منها : الطباق ، المقابلة ، الجناس ، التقسيم ، الاستعارة المكنية •• مما لا داعي الى النص عليه •

ولا نشك أن الشاعر كان يرغب في أن يحلي نظمه بهذه الوجوه ، وان عصره كان يرتاح اليها ويطلبها •

ولكنها جاءت في اللامية مقبولة وغير مستثقلة أو قل انها جاءت سهلة على لسان معود ومن قريحة ثرة وفي حالات نفسية تمنح الصناعة طبعا ، والعظام لحما فتنسجم فيها العناصر المختلفة وتهبها قوة وحياة •

ولا تنس ان الشاعر صناع ماهر مضت عليه ـ قبل اللامية ـ أكثر من ثلاثين سنة وهو يحوك وينسج ويهيىء آلاته •

وكان طبيعيا أن يبدو أثر الصناعة على أبرز ما يمكن في مقطع الغزل التقليدي حيث تخف الحدة ويضعف النفس ويكون للمؤلف متسع من الوقت يبذله في

التنميق ، وثروة من التراث يستغلها في البناء •

ولغة اللامية من أفصح ما يكون لفظا ، وأفخمه تركيبا • انها لغة امرىء أخذ اللغة عن أصولها وتبحر في مظانها ونصوصها ومرن نفسه عليهـا حتى طوعها لقلمه ولسانه واستوت لديه اللفظة السهلة والصعبة والقريبة والبعيدة وانه ليركبها وكأنه لا يفطن الى مواضع الغرابة في الاداة •

ان عددا لا بأس به من المفردات يبدو غريبـا علينا وعلى أسلافنا • والا ، لما سودت الصحف في شرح اللامية وبيان معانيها • هذا صحيح ، وأصح منه انك حين تقرأ القصيدة لا تواجه هذه الغرابة ، انما الذي تنساق فيه هو الجو ـ وحسب الشاعر الفحل أن يخلق جوا ، حتى اذا رحت تحلل القصيدة بيتا بيتا والبيت كلمة كلمة رأيت صعوبة المواد التي كونت هذا البناء الشاهق •

وهذا طبيعي ، لان القصيدة أصيلة وصادقة أعرب فيها الشاعر عما عاني وقد أصيب في صميم وجوده •

ويتميز المقطع الغزلي بأوفر حظ من المفردات الغريبة ، وهذا طبيعي أيضا ، لانه تقليد وصناعة وبراعة •

(٣)

أول ما يفهم من قصيدة تسمى « لامية العجم » ان صاحبها عجمي ، أو انها تمجد العجم وتسجل مفاخرهم عبر التاريخ ومثلهم العليـا التي يتميزون بهـا عن سائر الامم ، وانها تحمل طابعا من الشعوبية وتفضيل الفرس على العرب ، أو انها تحفظ ـ في الاقل ـ معالم أخلاقهم وسمات معاشهم • وألا تكون فردية يتحدث فيها شخص بعينه عن حادثة خاصة به اكتنفته خلال فترة معينة •

فماذا في اللامية من هذه الامور ؟ ليس فيها شيء • فليس الطغرائي شاعرا عجميا • هذا أمر أصبح مفروغا منه[١] ؛ فلقد نسبته مصادر مهمة لأبي الاسـود

(١) أعلاه ، الفصل الاول •

الدؤلي[2] وأبو الاسود عربي وبنو دئل من كنانة من عدنان[3] . أما أن يلقب أحيانا بالاصبهاني وانه من مواليد هذه المدينة وفي اسرة تقطنها ، فليس لذلك من دلالة كبيرة ، فلطالما سكنت هذه المدينة أسر عربية منذ دخلهـا العرب مبـكرا في العصور الاسلامية ، وطالما حمل المشاهير نسبا الى مساقط رؤوسهم . وقـد كان أبو الفرج ـ صاحب الاغاني ـ أصبهانيا قبل الطغرائي ، والعماد ـ صاحب خريدة القصر ـ أصبهانيا بعده ، وكلاهما عربي دون شك . أضيف الى أن ليس في شعر الطغرائي ولا في الاحاديث عنه ما يدل على فارسيته . ولم نجد النص على أنه عجمي فارسي الاصل الا لدى مؤلفين متأخرين مثل هيوار ، ونيكلسن ، والزيات ، محمود مصطفى ، وحنا فاخوري[4] ..

وليس لهذا أية دلالة ، فهم متأخرون جدا ، ولم يتسع لهم الوقت للتجرد في التحقيق وانهم تأثروا بنسبة « الاصبهاني » وبـ « لامية العجم » .

ثم انك تقرأ اللامية فلا تجد فيها داعيا لربطها بأمة من الامم ، فلا هي للعرب ولا هي للعجم ولا هي لغيرهم ، انها لا تتحدث عن العجم ولا الى العجم بقليل أو كثير ، لا مدحا ولا ذما . ولا يمكن أن تكون مصدرا في دراستهم .

بل انهـا ـ اذا كان ولابد ـ أصـلح أن تكون مصـدرا عن أخـلاق العرب ومعاشهم[5] ، ولا يقصد بذلك أن تكون صفحة من تاريخ بغداد في مطلع القرن السادس ، انما يقصد انها ، في المقطع الغزلي ، تبين صـورا من أخـلاق العربي

---

(٢) نقله علي رضائي عن العماد ، وأكده أبو الفدا ١ : ٢٤٧ ، ابن الوردي ٢:٣١ ، البارزي في مختصره لوفيات الاعيـان ، وينظر سـبط ابن الجوزي وابن جماعـة .

(٣) القلقشندي ص٥٤ (وينظر الفيروز في المحيط) . وقد يرد الطغرائي على : (الليثي) كما في مخطوطة لندن ٧٥٣٠ ، وابن جماعة بسند عن السمعاني و٥٧أ ، وفي البداية والنهـاية ١٢:١٩٠ . وليث بطن من بكر من كنـانة كما في القلقشندي .

(٤) في كتبهم عن تاريخ الادب العربي . وفي اعجام الاعلام لمحمود مصطفى .

(٥) ينظر الراوي ٥:٤ .

والعربية في البادية بين الشجاعة والكرم والحب والكره والاستار والكلل ، سجلتها باعجاب وتقدير بعد مر قرون .

اذاً ، كيف أصبحت لامية العجم ؟ لا أدري ! فالمؤلف لم يسمها كذلك حين نظمها وحين رواها ، وحين رويت عنه . ثم كان الديوان الذي جمعه الشاعر نفسه ولم نجد على رأس القصيدة أكثر من « قال في مدينة السلام عام ٥٠٥ » .

وتحدث العماد الاصبهاني[٦] ـ وهو معاصر ـ ولخص حديثه على رضائي[٧]، ولم يقرنه أو يقرنها بالعجم وانما اكتفى بأن قال « نبدأ بلاميته » .

ولعل أول تسمية لها بلامية العجم نراها في « ارشاد الاريب » لياقوت الحموي المتوفى عام ٦٢٦ أي بعد تأليف اللامية بمئة وعشرين سنة . وقد قال : « ومن شعر مؤيد الدين الطغرائي قصيدته التي تداولها الرواة وتناقلتها الالسن المعروفة بلامية العجم[٨] » . ومن الممكن أن تكون الالسن التي تناقلتها حملتها هذه التسمية . ثم يأتي ابن خلكان فيقول شيئا يشبه ما قاله ياقوت : «المعروفة بلامية العجم[٩]».

حتى اذا جاء الصفدي أثنى عليها الثناء العاطر وخصها بشرح مسهب سماه « الغيث المسجم في شرح لامية العجم » بل أكد وعلل : « وأما هذه القصيدة اللامية فانما سميت لامية العجم تشبيها بلامية العرب لانها تضاهيها في حكمها وأمثالها . ولامية العرب هي التي قالها الشنفري ، وأولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم   فاني الى قوم سواكم لأميل

.. وحسبك ان الناس قالوا في هذه القصيدة انها لامية العجم في نظير تلك بمعنى ان كان للعرب قصيدة لامية مشهورة بالادب والامثال والحكم فان للعجم لامية مثلها تناظرها » ، واضافة الشيء الى شيء مشهور أو أعظم تدل على شرف

(٦) الخريدة ، قسم بلاد العجم .

(٧) علي رضائي ، عود الشباب .. وقريب من هذا ما رواه الحسامي في مختصره لابن النجار فقال : « وهو صاحب القصيدة الغراء التي أولها اصالة الرأي .. » و٣٥ب .

(٨) ياقوت ١٠:٥٩ـ٦٠ (الحسين ..) .

(٩) ابن خلكان ١:٢٨٤ (الحسين ..) .

المضاف ..[10] » .

وفتح الصفدي بأقواله هذه أبوابا لا داعي لفتحها ، وقد ظلت مفتوحة مدى قرون[11] . فلقد جرّ شرحه ـ كما سنرى ـ سلسلة من الشروح تلخيصا وردا ، محتفظة ـ في الغالب ـ بنسبتها الى العجم ومقارنتها بلامية العرب . ونقل العاملي عن الرياض : « ومن مشهور شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم لأن ناظمها عجمي أصبهاني .. وذلك في مقابلة لامية العرب ..[12] » وأبدل حنا فاخوري ب «مقابلة» « تمييزا لها عن » ..[13] ، وجر ربط لامية الطغرائي بلامية العرب الاب لويس شيخو ٦ : ٢٠٤ ـ الى أن يضعها في سلسلة الشعر القديم الذي يقصد به الجاهلي ، فقد جاء الشنفرى ـ في كتابه ـ بعد عنترة وجاء الطغرائي بعد الشنفرى . بل ان المرحوم الراوي « فرض ان الذي سماها لامية العجم هو الطغرائي نفسه » . و « ناقشه الحساب على هذه التسمية » وانطلق في المناقشة من مقارنتها بلامية العرب فقال : « هل فكر الطغرائي عند معارضته لتلك القصيدة أن يرسم لنا في قصيدته صورا صادقة من أخلاق العجم ومطاوي نفسياتهم وكيفية معاشهم في حواضرهم وأريافهم ؟ ..[14] .

أجل ، لقد فتح الصفدي أبوابا ظلت مفتوحة ، وما كان لها أن تبقى كذلك . فلم يسم الطغرائي قصيدته بلامية العجم ، ولم يدر بخلده أن يعارض لامية العرب ، ولم يشهد المقابلة بين « اللاميتين » ، والحقيقة ـ ولما أبان المرحوم الراوي[15] ـ ليس هناك أي مجال للمقابلة بين اللاميتين ، وليس هناك أي داع . انه لمن السخف

---

(١٠) الصفدي ١:١٣ .
(١١) طاشكبري زاده ١:١٨٩ (علم الدواوين) .
(١٢) العاملي ٢٧:٧٩ .
(١٣) الفاخوري ، ٧٢٠ .
(١٤) الراوي ٥:٤ـ٥ . وحمل الاعتقاد بفارسية الطغرائي الكنعاني ص ٢٤ على أن يقول ـ وهو يقابل بين اللاميتين : « امتازت لامية الشنفرى بالصراحة .. أما الطغرائي فهو يوصيك بالحذر والتكتم .. وهذا التباين ليس بغريب فعربي الصحراء غير أعجمي المدينة » .
(١٥) الراوي ٥:٤ـ٥ .

أن تعقد مقارنة بين قصيدتين لا رابط بينهما ولا يتشابهـان في الوزن أو في ايقاع لام القـافية[١٦] .

لقد آن لباب المقابلة بين « اللاميتين » أن يسد[١٧] .

(٤)

لماذا تناقلت الالسن اللامية ؟ كان الطغرائي أول من أعجب بهـا ورواها ، وقـد يكون مرد ذلك كونهـا تصور جانبـا من نفسـه وتؤرخ حدثا ضخما في حيـاته ، ولانهـا شامخة جاءت على صعيـد الشعر العربي العالي ، وعلى عموده المستحب المسـتعذب في كل العصور دون أن تنسى ذوق عصرهـا في المعـاني والبيـان والبديع .

---

(١٦) شرح لامية العرب الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨هـ) في كتـاب خاص سماه : « أعجب العجب في شـرح لامية العرب » طبـع عام ١٣٠٠هـ (في مجموعة منهـا المقصورة الدريدية) ، وطبـع مع شـرح آخر لابن زاكور المغربي (أحد أعلام المغرب في القرن الثاني عشر) عام ١٣٢٨ (طـ٣) ، وطبع الشرحان يليهما شرح ابن أحمد المالكي سنة١٣٢٤ (القاهرة ـ كما يذكر سركيس ص١٩٦٤) .
ومن المفيد أن نذكر ان للامية العرب شرحين مخطوطين (صورتهما في المجمع العلمي العراقي) للسويدي (ابي البركات عبدالله بن الحسين بن مرعي) ويقع في ٦٦ ورقة ، وللشاوي (سليمان بن عبد الله) ويقع في ١٧١ ورقة ، تم سنة١١٣٨ .

والمهم ان هؤلاء الشراح (الزمخشري وابن زاكور والسويدي والشاوي) لم يشيروا الى الطغرائي أو لاميته وتمسك الشارحان الاخيران بما روى من ثناء عمر ابن الخطاب على لامية العرب واسـتدلا بذلك على عظمتها . وفي المـكتبة العباسية مخطوطة من شرح النقچواني ، ينظر الخاقاني .

(١٧) بل ان الدكتور البصير ، ص٧٤ ، يرى ان لامية العرب منحولة ، وانها تسيىء الى سمعة العرب ، وانهـا شعوبية قد تكون لاميـة خلف الاحمر نحلهـا الشنفري وسماها لامية العرب ، لانهـا تصف العرب باللصوصية وقتل النساء والاطفال وأكل التراب .

وذكر الدكتور يوسف خليف ص ١٧٧ :

روى القالي عن ابن دريد نصا يذكر فيه ان هـذه القصيدة المنسوبة الى الشنفرى لخلف الاحمر (الامالي ١ : ١٥٦) وهو نص له قيمته لان ابن دريد كان قريب عهد بخلف ... فاذا أضفنا الى هذا ان أبا الفرج قد أغفل هـذه=

ورواها عنه المعاصرون

« وتداولتها الرواة » وسُرّقت وغرّبت •

ويبدو ان ذيوعها لا يكمن في دلالتها على شاعرية صاحبها بالقدر الذي يدل على مـا تضمنت من « أمثال وحكم » يمكن أن يستشهد بهـا الانسان في سرّائه وضرّائه ، وآلامه وآماله ، وتفاؤله وتشاؤمه • فاذا برم ببلد قال « فيم الاقامة في الزوراء •• » واذا آثر السلامة قال : « حب السلامة يثني هم صاحبه •• » واذا حث على التنقل : « ان العلى •• » واذا ضاقت به الدنيا : « أعلل النفس •• » واذا برم بساسة عصره : « ما كنت اوثر •• » واذا اشتد يأسه من الانسان : « اعدى عدوك •• » واذا دعا الى القناعة : « فيم اقتحامك •• » •• وهو في كل حال يجد في البيت « البلسم الشافي » والتجسيد المناسب لما هو فيه ، كما يستشهد المرء بالمثل الشائع ، وكما سارت أبيات المتنبي •

ان هـذه الامثال هي التى عملت على بقاء القصيدة وتنقلهـا بين الاجيـال ، وعلى عناية الناس وروايتها وشرحها ومعارضتها ـ وحتى ترجمتها •

ولقد أدركنا جيلا يحفظها ويعتز بها ويرسـل أبياتها في مناسبة وأخرى من مناسبات الحياة : فيم الاقامة•• أعلل النفس•• حب السلامة•• وانما رجل الدنيا •

ولا شك في أن حفظ اللامية بهذا المعنى ، يدل على أن الناس قدروها بأمور هي خارج طبيعة العمل الادبي وخارج الفن وما حفلت به هذه القصيدة من جلال في التراكيب وفي العواطف ، ومـا عبر به صاحبهـا عن حالات نفسـية عاناهـا ومتناقضات أثقلت كاهله •

= اللامية في ترجمته للشنفرى اغفالا تاما ولم يشر اليها أي اشارة على كثرة ما روى من شعره (الاغاني ٢١ : ١٣٤ـ١٤٣) •• وان لسان العرب ـ على كثرة ما نقل من شعر الصعاليك ـ لم يرد فيه أي ذكر لهـا ولأي بيت منهـا ، بدأت كفة الشك في صحة نسبتها ترجح •

والحق يقال ان خلفا قد صور حياة الصعاليك في هذه اللامية •• حتى ليصح أن نطلق عليها « لامية الصعاليك » لا لامية العرب •

ولم تكن اللامية وحيدة في هذا الباب ، فان أكثر الشعر العربي الذي تناقلته الاجيال الاخيرة كان بمقياس خارجي يتصل بالحكم والامثال أو بالجناس والطباق .. ولقد « خلد » هذا المقياس كثيرا من الشعر الرديء وعفى على كثير من الشعر العـالي .

وصحيح ان في اللامية حكما وأمثالا ، ولكننا لا نعجب اليوم بها لمجرد وجود الحكم والامثال ، ولا نعد ذلك سرا في خلودها . ان خلود اللامية يكمن في عمق التجربة والعواطف التي عبرت عنها بقدرة وتمكن .

ان هذه العواطف والحالات النفسية التي هي عواطف رجل بعينه عاش في القرن الخامس ـ السادس للهجرة ـ من القوة بحيث يحس أنفسهم فيها ملايين الناس في مشارق الارض ومغاربها ، فاذا أصابهم الخير وجدوا أنفسهم فيها ، واذا أصابهم الشر وجدوها كذلك . انها تجربة خاصة ، ولكن صاحبها كان من القوة والعنف بحيث اكسب هـذه التجربـة الشـمول والدوام ، ودل على اسـتيعابه مجتمعه وانعكاساته في نفسه .

(٥)

واللامية من القصائد القليلة التي لقيت عنـاية مدهشة لدى الشرّاح حتى زادت شروحها على العشرة[١] :

(١) شرح أبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري المتوفى سنة ٦١٦[٢] .

(٢) شرح صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي[٣] المتوفى سنة ٧٦٤ .

---

(١) أورد أكثر هـذه الشروح حاج خليفـة ، باب اللام ، ١٥٣٦ ـ ١٥٣٧ (= ٥:٢٩٢ـ٢٩٥ ط . فلوجل) .وأشار بروكلمان الى عدد من نسخها المخطوطة .

(٢) منه نسخة غير كاملة في الاسكوريال ، وينظر دربنورك ، ٢٠٤.

(٣) طبع بعنوان « الغيث المسجم في شرح لامية العجم » وورد اسمه لدى حاج خليفة ، طاشكبرى زاده ١:١٨٩ (علم الدواوين) وفي بعض الشروح الاخرى على : « الغيث الذي انسجم .. » . ينظر عن الصفدي ، العسقلاني ٢:٨٧ ، السبكي ٦:٩٤ .

وهو ضخم يقع في جزءين . طبع للمرة الاولى عام ١٢٩٠ ، وللثانية عام ١٣٠٥ وتبلغ صفحات هذه الطبعة ٥٤٤ صفحة . وقد ذكره الصفدي في الوافي عندما ترجم للطغرائي وتحدث عن اللامية فقال : « وقد وضعت عليها شرحا في أربع مجلدات »[٤] .

(٣) شرح الشيخ كمال‌الدين محمد بن موسى الدميري المتوفى عام ٧٣٩ . وهو تلخيص لشرح الصفدي . منه مخطوطتان في كمبرج ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ . ذكر فيه الدميري « ان الصفدي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فوائدها الا أظهرها غير انه ينتقل فيه من علم الى علم ومن غريبة الى غريبة ومن نكتة الى نكتة .. فهو غريب في بابه عزيز عند طلابه » فلخصه .

(٤) شرح بدرالدين محمد بن أبي بكر (بن عمر) بن محمد بن سليمان المالكي الدماميني المتوفى سنة ٨٢٨ . واسم الشرح : « نزول الغيث الذي انسجم على شرح لامية العجم . منه مخطوطة في دار الكتب المصرية ، رقم ٩٠٤١ ، ومخطوطة في ليدن ، رقم ١٠٠٦ تقع في ١٢٥ ورقة .

جاء في مقدمته : « .. أما بعد .. فان بعض سكان الاسكندرية ممن يزعم انه من طلبة العلم .. شاهدته يطنب في شكر الكتاب الذي وضعه صلاح الدين خليل الصفدي شرحا على لامية العجم ويرى انه حلو في الذوق ، خلو من العجم.. فكنت أود لو وقفت على هذا الكتاب لاتضي منه الوطر .. فلما ارتحلت الى الديار المصرية في أواخر سنة ٧٤٩ وقفت عليه وقوف منتقد لما فيه من الزيف ، سالك معه سبيل الانصاف منكب عن طريق الحيف فوجدت هذا الصلاح قد ارتكب خطأ جليلا .. فأردت أولا نبذ هذا الكتاب وطرحه .. ثم اردت في الحاضر تبكيت ذلك الكاذب .. فكتبت في هذه الاوراق ما تيسر من الاعتراضات التي عرضت والانتقادات الصحيحة التي آلمت المعاند وأمرضت . وحيث كان ذلك التصنيف موسوما « بغيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم » رأيت ان اسمى هذه

---

(٤) الوافي ١١:٥٩ .

المناقشات « بنزول الغيث » لانها التي انزلته الى الحضيض وأوقعته من اعتراضاتها في الطويل العريض[٥] •

ويسير في المناقشات وكلها في النحو والعروض واللغة والبديع لا تمس اللامية ولا تتصل بها[٦] •

(٥) قطر الغيث المسجم في شرح لامية العجم للشيخ عبدالرحمن الشافعي •• الطبيب •• مقتديا بالصفدي والدميري[٧] •

(٦) شرح علي بن قاسم الطبري[٨] واسمه « حل المبهم في شرح لامية العجم » •

(٧) شرح أبي جمعة سعيد بن مسعود الصنهاجي ثم المراكشي ، واسمه « ايضاح المبهم من لامية العجم[٩] » • وقد جأ في مقدمته : « •• وبعد •• فان اللامية •• اشتمل عقدها من نفيس المعاني على درر مكنونة •• بيد أن شارحيها لم يشفوا غليل المتأمل ، فمن مقصر مخل ، ومن مطول ممل • فأشار من تتعين عليّ طاعته عند قراءتها عليه وتصحيح ألفاظها لديه بأن أضع عليها شرحا يكشف القناع عن وجوه محاسنها •• سميته ايضاح المبهم من لامية العجم •• وجعلته تحفة مهداة لحضرة الملك الاعظم •• السلطان أبي العباس أحمد بن مولانا الملك الاشرف أبي عبدالله محمد الشريف الحسني •• »[١٠] •

---

(٥) عن مقدمة مخطوطة ليدن •

(٦) فى هامش ص ١٢١٢ من سركيس : « •• منه نسخة نفيسة فى الخزانة التيمورية وثلاث نسخ •• في دار الكتب المصرية • ورد على الدماميني علاء الدين ابن اقبرص •• المتوفى سنة ٨٦٢ في كتاب تحكيم العقول بأفول البدر بالنزول •» الخاقاني ، منه نسخة في المكتبة العباسية •

(٧) طبع على هامش « نفحات الازهار على نسمات الاسحار في مدح النبي المختار لعبد النبي النابلسي » ، في بولاق ودمشق ١٢٩٩/١٨٨٧ •

(٨) يذكر حاج خليفة انه توفى في حدود ٦٨٣ •

(٩) انتفع به Van der Sloot

(١٠) عن مقدمة مخطوطة ليدن ٧٧٧ •

منه مخطوطتان في ليدن ٦٥ ، ٧٧٧ • وقد وردت « أبي جمعة » على « ابن جماعة » في كشف الظنون •

(٨) شرح الشيخ جمال‌الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي المتوفى سنة ٩٣٠[١١] مسموما بالهند • وسماه « نشر العلم في شرح لامية العجم » أوله : « الحمد لله الكريم المنان •• » « ذكر فيه انه جرد أكثره من شرح الصفدي واختار محاسن شعره ، واقتصر منه على ما يتعلق بشرح القصيدة وذكر فيه ان الصفدي شرحهـــا فأوعى وأوعب ، وأطنب وأسهب ، وأعجب وأغرب ، وأطلق أعنـة الاقلام ، وجر أذيال فضول الكلام ، وأسهل وأوعر وأنجد وأغور ، واستطرد من فنون الى فنون ، واسترسل في شجون من الجد والمجون حتى صار ذلك التطويل سببا للعجز عن التحصيل ، هـذا مع ما خرج فيه عن الحد ، وطغى الماء في المد من مستهجنات هزله التي لا تليق بقلمه وفضله بما لا يحل ذكره • بل تخل بالعدالة روايته وسماعه •• »[١٢] •

مخطوطاته في عدة مكتبات • وقد طبع في القاهرة أكثر من مرة •

(٩) بروق الغيث لابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ •

جاء في مقدمته : « •• أما بعد •• فانه ما خفي على سراة الادب •• من أن الشيخ الصفدي •• أتى في شرح لامية العجم بفضلات غير ملائمة لشـدة شـغفه بالكثرة •• وقد رُسم لي أن اختصر هـذا الشرح •• وكان الشـيخ قـد سمى شرحه « غيث الادب الذي انسجم » ولـكن ما انتظم له انسجامه • وقد أسميت مختصري هذا « ببروق الغيث » وهو البروق التي تومض من سواد السطور في حنادس الظـلام ، ولم أورد من غيث الادب الا ما تروى به أذواق من تأدب لئلا يقال ان في بروق هذا الغيث برقا خلبـا • فان علامـة العصر القاضي بدرالدين الدماميني المالكي المخزومي فسح الله في أجـله تقدمني في تصنيف كتـاب سماه

---

(١١) وروى ٩٣٩ • قال سركيس ٥٣٢ـ٥٣٣ : ولد عام ٨٦٩ بحضرموت ، وسلك السلوك في التصوف ، توفى عام ٩٣٠ وطبـع نشر العلم بمط • كاستلي سنة ١٢٣٨ وبالمطبعة الخيرية سنة ١٣٠٩ ، ١٣٢٠ •

(١٢) حاج خليفة •

نزول الغيث .. » .

منه مخطوطة في ليدن ، رقم ١٠٣٦ . وقد طبع في بولاق سنة ١٢٥٠ وانتفع به . H. Van der Sloot

(١٠) شرح جلال بن خضر الحنفي ، ألّفه بقسطنطينية في محرم ٩٦٢ . أوله « حمدا لمن هدانا بأوضح تبيان .. سماه نبذ العجم عن لامية العجم . وهو شرح مفيد متوسط ، أكبر من شرح أبي جمعة بقليل »[١٣] .

منه نسخة في كمبرج ، رقم ١٠٥٧ ونسخة (ناقصة) في المتحف البريطاني رقم ٣١٦٤ . وجاء في مقدمته : « .. التمس مني بعض الفضلاء الفخام والادباء الكرام من أعيان الروم .. أن أشرحها شرحا ليس بالطويل الممل .. ولا بالقصير المخل .. فاعتذرت .. فلما لم تقبل هذه الاعذار .. التمست شرحا من شروحها لاحذو حذوه .. فسألت عن ذلك جمعا من الاعيان والاخلاء والاخوان .. فلم يجب أحد عنه .. وكان ربوع هذا العلم قد درست عليه الدارسات .. فاستخرت الله .. وشرعت .. »[١٤].

(١١) شرح حسين الكفوي . جمعه من الشروح ، كشرح الصفدي وشرح القاضي جلال الدين المدني . وذكر اعتراض الدماميني باسمه .

منه مخطوطة في المتحف البريطاني رقم ٢٣٫٥٩٤ وتشير الى أن الشارح كان بمكة .

(١٢) حاشية الشيخ عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباس المتوفى سنة ٩٦٣ على شرح الصفدي[١٥] .

---

(١٣) حاج خليفة وقد وردت « أبي جمعة » على « ابن جماعة » في ط . استانبول ، وابن الجماعة في ط. فلوجل .
(١٤) مخطوطة لندن و٤ أ .
(١٥) في طبعة فلوجل لكشف الظنون : العباسي .

(١٣) الارب من غيب الادب ، طبع في بيروت سنة ١٨٩٧ •

(١٤) شرح الميناوي • تحفة الرائي للامية الطغرائي • طبع في القاهرة (بولاق) ١٣١١ •

لقد انتشرت اللامية وشروحها في العالم ، ولا تكاد تخلو اليوم مكتبة تعنى بالمخطوطات من شرح أو أكثر من شروحها •

لقد شرحت هذه الكتب اللامية ، وبلغ شرح الصفدي درجة من الضخامة تدعو الى العجب • فماذا فعلوا ؟ انهم يبدأون بتفسير المفردات تفسيرا قاموسيا ثم يعربون اعرابا مدرسيا ثم يلخصون مجمل معنى البيت وقد يستشهدون بأبيات من هذا الشاعر أو ذاك لكل مناسبة •

وربما كان العكبري أول من سن هذا المنهج في شرح اللامية • ولقد بالغ الصفدي فيه • ولك أن تسأل ماذا في شرح الصفدي ؟ وكيف تسنى له ذلك ؟ ولو شئنا القسوة ـ أو المداعبة ـ لقلنا : ان في شرح الصفدي للامية كل شيء الا شرح اللامية • ذلك انه اتخذ القصيدة وسيلة لغاية أبعد ليست من اللامية في شيء ، لقد كان يخرج لمناسبة وغير مناسبة ليحدثك عن المصدر وحروف الجر والخسوف والكسوف والافلاك وما قاله فلان وفلان قبل الطغرائي ، وما قاله فلان وفلان بعد الطغرائي ، وقد ضاعت اللامية في هذا الخضم المضطرب •

وتنبه القدماء الى مساوىء شرح الصفدي هذا فعملوا الملخصات[١٦] وألفوا شروحا نزهوها من الاستطراد والاطالة • ذلك انك مهما تقل في الحط من شرح الصفدي لا تستطيع أن تدعي انه مما يستغني عنه طالب العلم بمفردات اللامية واعرابها ومعاني أبياتها ، فلابد من تجريدها • ولقد استعنا به ـ كما رأيت في حواشي النص الذي أثبتناه للقصيدة ـ استعانة كبيرة •

---

(١٦) يذكر الخاقاني ان في المكتبة العباسية ملخصا للصفدي لخص به « الغيث » في أربعة أيام ••

على اننا لا نعد ـ اليوم ـ شرح الصفدي والشـروح الاخرى شروحا بالمعنى الصحيح • انه مقدمـة للشرح ، واعانة عليـه • ان الشـرح الحقيقي هو الذي يبين جو القصيدة وظروفها وصلتها بناظمها ومدى اعرابها عن حالته النفسية وصلة المقطع منها بالمقطع والبيت بالبيت •

وانك لتبحث عن هذا فلا تكاد تجد له مكانا في ذلك الخضم من الشروح التي تتحدث وتطيل الحديث دون أن تربط ودون أن تصل • ولو قيض للصفدي الالمام بهذا المنهج الذي نريده لأفادنا كثيرا ، ولحفظ لنا أمورا يصعب علينا أن ندعي العلم بها • عن بغداد عام ٥٠٥ ، عن العطل الذي أصاب الشاعر ، عن الاصـدقاء الذين تنكروا ، عن أصبهان ومن بقي فيها من آل الشاعر وذويه ، ولوقف عند « دولة الاوغاد والسّفل » •

اننا اذ نشتد مع الصفدي في الحساب نكون قد حاسبناه على ما لا قبل له به ، فهو رهين عصره •

وقد ظل كتابه مثار اعجاب ، حتى اذا طبع في الاسكندرية عام ١٢٩٠ قال الشيخ ابراهيم افندي الاحدب الطرابلسي (٢ : ٤١١-٤١٢ من الطبعة) :

هل بارق من ثنايـا ثغر مبتسم　　　ابان نظم اللآلي في دجى الظلم

* * *

ام ذي مناهل غيث قد اضيف بما　　　حلا الى أدب بالفضـل منسجم
لامية العجم استعلت به وزهت　　　بمعرب للمعانـي غـير منعجم
شرح بديع به شرحي يطول اذا　　　احكمت فيه بيان النعت بالحكم
ابان للقوم افنـان الفنـون فما　　　روض جلا نور منثور ومنتظم

* * *

لله در صلاح الدين منشئهـــا　　　ابكار حسن فما سلمى بذي سلم
لم ينصف ابن الدماميني حيث أتى　　　منقصا لعـلاه غـير محتشم ••

وقال الشيخ رمضان حلاوة :

•• خليل ايبك من راقت مشاربه وبحر آدابه قد فاض كالديم
لله شرح له سامى العلوم على لامية العجم المرفوعة العلم
مطول ادبا في ضمنه حكم لا خير في قصر الآداب والحكم
عن كل معنى يكاد السحر يعبده وكل لفظ رقيق الحسن منتظم
يظل يورد أبحاثا ويعقبها ورد الحديث فيروى منه كل ظمي
له رجوع الى اتحاف شاردة على أصالة رأي فيه ملتئم

(٦)

ولقد تلقف اللامية كثيرون ، عارضوها وشطروها واختاروها[١٧] واستشهدوا بأبياتها وسارت مسير الامثال وانسابت في حنايا الحديث وتسربت في ثنايا الكتابة ، وتغلغلت في التقاليد واستقرت في العقول •

فمن العناية التي لقيتها اللامية ودلت على اهتمام الناس بها ، واعجاب الادباء : التشطير والتخميس والمعارضة وما أشبه •

وروى الصفدي : « انشدني لنفسه من لفظه المولى نور الدين علي بن محمد ابن فرحون المالكي اليعمري المدني بدمشق المحروسة في سنة احدى وأربعين وسبعمائة هذه اللامية وقد ركب على كل صدر عجزا وعلى كل عجز صدرا فناسبها ، وهذا قصد ظريف • ومما أنشدني قوله :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وسرعة الحزم ذادتني عن المذل
وحلة العلم اغنتني ملابسها وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيرا ومجدي أولا شرع وسؤددي ذاع في حل ومرتحل

---

(١٧) وممن اختارها السيوطي في الكنز المدفون ، ١١٢ ـ وأحمد اليمني الشرواني أحد ادباء القرن الثالث عشر للهجرة في كتابه « نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن » وطبع مرارا ، ينظر سركيس ١١٢٠ •

وهمتـــي فـــي الغنـــى والفقـــر واحـــدة
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفـــل

فيم الاقامـة بالزوراء لا ســـكنى دان ولا انا في عيش بها خضـــل
وليس لي ارب فيهـــا ولا خولي بها ولا ناقتي فيها ولا جملي(٢١)

وفي آخر مخطوطة لشرح الدميري في مكتبة الدكتور حسين محفوظ نسخة من هذا التعجيز والتصدير باسم « نزهة النظر ونخبة الفكر » .

وقال الصفدي « زعم بعضهم ان بعض الشعراء غيَّر قوافي هـذه القصيدة من اللام الى حرف العين وهـذا عندي يتعذر لأن ألفاظ هـذه القصيدة في غاية الفصاحة وتراكيب كلماتها كلها منسجمة عذبة غير قلقة ولا نافرة ومعانيها بليغة غير ركيكة وقوافيها في غاية التمكن »(٢٢) .

وأورد أبياتا في معرض مدحها والثناء عليها يمكن أن تكون ضربا من المعارضة في الوزن والقافية :

فما لهـا في الورى مثـل يناظرها وكم لها سار بين الناس من مثـل
أقمارها في تمام النظم قـد طلعت تسـير في أوج معنـاها ولم تفـل
وزهرها لم تزل تنـدى غضـارته لان منبتـه في روضـها الخضـل
يرتاح ســـامعها حتى يهز لهـــا من التعجب عطف الشـارب الثمل
فـــلا تعـــر غـــيرهـا ســـمعا ولا بصـــرا
« في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحـل »(٢٣)

على ان الصفدي ـ وهو المعجب المستهام باللامية ـ عارضها وكان مما قال(٢٤):

الجَدُّ في الجِد والحرمانُ في الكسل فانصب تُصب عن قريب غاية الامـل

---

(٢١) الصفدي ١:١٨ .
(٢٢) نفسه ١:١٣ .
(٢٣) نفسه ١:٣ .
(٢٤) الشرواني ، نفحة اليمن ، ١٥ ٤، الهاشمي ، جواهر الادب (فرغ من جمعه سنة ١٣١٩) . وليلاحظ ان الصفدي لم يشر في « الغيث » الى معارضته .

واصبر عـلى كـل ما يأتي الزمان به ... صبر الحسـام بـكف الدارع البطل

وجانب الحرص والاطماع تحظ بما ... ترجـو من العزّ والتأييد في عجـل

ولا تكوننْ عـلى مـا فـات ذا حَزن ... ولا تظـلّ بمـا اوتيت ذا جـذل

واستشعر الحلم في كـل الامور ولا ... تسـرع ببـادرة يوما الى رجـل

وان بُليتَ بشخص لا خـلاقَ له ... فكن كأنك لـم تسـمع ولـم يقُـل

ولا تمـار سـفيها في محـاورة ... ولا حليما لـكي تقصى عن الزلل

ولا يغـرّك من يبـدي بشـاشته ... اليـك خَـدعا فان السمّ في العسـل

وان اردت نجـاحا كـل آونة ... فاكتـم أمورك عن حـافٍ ومنتعل

ان الفتى من بماضي الحزم متصفٌ ... ومـا تعـود نقـض القول والعمـل

ولا يقيـم بأرض طـاب مسكنُها ... حتى يقـدّ أديمَ السـهل والجبـل

ولا يضـيِّع سـاعات الزمـان فـلن ... يعـود مـا فـات من أيامـه الأول

ولا يراقـب الا مـن يراقبـه ... ولا يصـاحب الا كـل ذي نُبَـل

ولا يعُـد عيوبـا للورى أبـداً ... بل يعتني بالذي فيـه من الخلل

ولا يظن بهـم سوءاً ولا حسَـناً ... بل التجـارب تهـديه عـلى مهـل

ولا يؤمِّـل آمـالا بصـبح غـد ... الا عـلى وجـل من وثبـة الاجـل

ولا يصـد عن التقـوى بصـيرته ... لانهـا للمعـالي أوضـح السـبل

فمن تـكن حـلة التقـوى ملابسَـه ... لم يخش في دهره يومـا من العطل

من لم تفـده صروف الدهر تجربة ... فيما يحـاول فليسـكن مـع الهمـل

من سـالمته الليـالي فليثـق عجـلا ... منهـا بحرب عـدوّ جاء بالحيـل

من ضيـَّع الحزم لم يظفر بحاجتـه ... ومن رمى بسهام العُجب لم ينَل

من جاد سـاد وحيى العـالمون لـه ... بديع حمـدٍ بمـدح الفعـل متصـل

من رام نيـلَ العـلى بالمـال يجمعه ... من غـير حـِل بُلى من جهـله وبَلى

من لم يصـن نفسـه سـاءت خليقته ... بـكل طبـع رديءٍ غـير منتقـل

من جالس الوغد والحمقى جنى ندما ... لنفسـه ورمى بالحـادث الجلـل

فخـذ مقـال خبـير قد حوى حِكما ... اذ صُغته بعـد طول الخُبر في عملي

والحـكم ، والدعوة الى الصبر والحلم والكتمان والحزم وما الى ذلك مما طرب له الصفدي اذ رآه في لاميـة الطغرائي[٢٥] وكأنه يرى في ذلك كل ما فيها . أما قصيدته فليست شيئا ، انه تعليم فقط .

وخمسـها عماد الدين أبو جعفر محمد بن علي الربعي البغـدادي .. وشـهاب‌الدين أحمـد بن عبـدالله الاندلسي الواداياشي واجـاد . توفي سـنة ٧٣٩ »[٢٦] .

أما صفي الدين الحلي فانه كتب بقصيدة الى صـديق تأخر عن انجاده في واقعة له وقد كان انجده في عدة وقائع وتأخر عنه عند سفره لمجرد ان أضـداده خدعوه ووعدوه بولايـة ، والحقيقة ان صفي‌الدين لم ينظم من القصيدة سـوى صدر المطلع وصدر الختام ، أما بقية الابيات فليس من شـعره ، فقـد عمـد الى عشرين بيتا من لامية الطغرائي فأخذ اعجازها وخرج لها عشرين صدرا اختارها من أعجاز قصيدة المتنبي

قـل للخلي الذي قـد نام عن سهري	ومن بجسـمي وحالي عنـده سقمُ
تنـام عني وعـين النجم سـاهرة	واحـر قلبـاه ممن قلبـه شبم
فالحب حيث العـدى والأسـد رابضة	فليت انـا بقـدر الحب نقتسـم
فهـل تعـين عـلى غيّ هممت بـه	في طيـه اسـف في طيـه نعـم
حـب السـلامة يثني عزم صـاحبه	اذا اسـتوت عنـده الانوار والظلم
فـان جنحـت اليـه فاتخـذ نفقاً	ليحـدثن بمـن ودعتهـم نـدم
رضى الذليـل بخفض العيش يخفضه	وقـد نظـرت اليـه والسـيوف دم

---

(٢٥) ولنذكر ان لامية الصفدي كانت سائرة .

(٢٦) حاج خليفة ١٥٤٨ ، ١٥٣٩ .

ومما يذكر ان حاج خليفة يذكر ص١٥٣٩ : « لامية الروم لمحمد بن محمـد ابن محمد بن محمد المعروف بابن الحكم الحلبي ، أولها :

حتام انظم من دمعي ومن غزلي   أدلة وحبيب القلب معتزلي

ويتحدث عن لامية في العروض ولامية في الكلام .

ان العـــلى حـدثتني وهي صادقـــة ... ان المعـارف في أهـــل النهى ذمـــم
أهبت بالحـــظ لو ناديت مســـتمعا ... واسـمعت كلمـــاتي من بـه صـمم
لعـــله ان بـدا فضـــلي ونقصـُهم ... ادركتـُهـــا بجـواد ظهرُه خـذم
أعلـــل النفـس بالآمـال أطلـُبهـــا ... لو ان امركـــم مـن أمرنـــا امـم
غـــالى بنفســـي عرفـاني بقيمتهـــا ... حـتى ضـربتُ ، وموج الموت يلتطم
مـا كنتُ اوثر أن يمتــــد بي زمنٌ ... شـُهـْبُ البـُزاة سواء فيه والرَّخم
اعـدى عـدوك ادنى من وثـِقتَ بـه ... فـــلا تظنـــن ان الليـث يبتســـم
وحســنُ ظنّـك بالايــام معجـــزة ... ان تحسب الشـحم فيمن شحمه ورم
ان كـان ينجـع شـيء فـي ثباتِـهِم ... فمـا لجرح اذا أرضـاكم ، ألـم
يـا وارداً سؤر عيش صفوُه كدرٌ ... وشـر ما يكسـب الانسـان ما يصـم
فيمـــا اعتراضـك لج البحر تركبـه ... والله يـــكـره مـا تأتون والـــكرم
ويا خبـيراً عــلى الاســرار مطلعـــا ... فيك الخصـام وانت الخصم والحـكم
قــد رشـحوك لامر لـو فطنت لـه ... تصـــافحت فيه بيض الهنــد واللمم
فافطن لتضـمين لفـــظ فيـك أحسبه ... قــد ضمن الدر الا انه كلم(٢٧)

ولعمل صفي الدين هذا دلالته في تقدير اللامية وصاحبها لانه اكبر شعراء المئة الثامنة ، ودلالته أيضا على شيوع اللامية .

ويقول الديوان : ان الصفي « ناسب بين القصيـدتين مناسبة عجيبة توافق غرضه ، فجاءت وكأنه نظمها بنفسه » .

أما انها عجيبة فصحيح ، أما « وكأنه نظمها بنفسه » فصعب التصديق ، لاسيما لاولئك الذين قرأوا اللامية وقرأوا الميمة وبقيت آثارهما في النفس .

هـذا الى أن القصيـدة الناتجة عن الخلط لم تعبر تمـام التعبير عن عمق الحادثة التي أثارتها .

---

(٢٧) ينظر ديوان صفي‌الدين ص ٥٤ـ٥٥ ، علوش ص ٢٧٨ـ٢٧٩ .

وروى فاندر سلوت ـ مما يدخل في المعارضة :

اقنـع تجل ولا تطمع تذل ولا تعجـل تزل ولا تغترّ بالأمـل

وروى حاج خليفة : « اللامية في نظير لامية الطغرائي ـ للشيخ غرس الدين خليل بن محمد الاقفهسي (المتوفى سنة ٨٢٠) ، على وزنها » أولها :

دع التشـاغل بالغـِزلان والغـزل
يكفيـك ما ضـاع من أيامـك الاول[٢٨]

وفي مخطوطـة بالمتحف البريطـاني : « هذا شـفاء السـقم .. في تخميس لامية العجم »

العـلم والعقـل للانسـان خـير حلي فضـلي كنـار القرى ليـلاً على جبل
وعنــد مـكري سواء غامض وجلي اصـالة الرأي صـانتني عن الخطـل
وحلية الحلم زانتني لدى العطل[٢٩]

وفي احدى مخطوطات المتحف البريطاني نقرأ :

« هذه لامية العرب مبارية لامية العجم :

زيادة القول تحـكي النقص في العمل ومنطــق المـرء يهــديه عن الزلل
ان اللســان صـغير جرمــه ولـه جرم عظيم كما قـد جاء في المثل ..
وتستمر في الحكم والجود والحلم ..[٣٠]

وفي مطلع العصر الحديث لم تفقد اللامية مكانتها ، وقـد عارضهـا السيد أحمد الهاشمي وأثبت معارضته في كتـابه « جواهر الادب » ـ الذي فرغ مـن جمعه سنة ١٣١٩ :

---

(٢٨) حاج خليفة ١٥٤٠ .
(٢٩) المخطوطة رقم ٧٤٣٣ ، و٥٣ب .
(٣٠) من المخطوطة ٧٥٩٨ و ١٨٠ .
وينظر الشرواني ، نفحة اليمن (ينسبها لصاحبها) .

عليك بالصبر والاخلاص في العمل ولازم الخير في حل ومرتحلِ

★ ★ ★

لا تطلب العز في دارٍ ولدت بها « فالعز عند رسيم الأينق الذلل »

★ ★ ★

وسادة العصر قد ألقوا مقالدهم الى الطغاة شرار الناس والسفل[٣١]

★ ★ ★

فقد فقدت الأولى كانت ببهجتهم نور النواظر في الاحداق والمقل

★ ★ ★

خذها محبّرة غيداء غانية أتت على عجل كالقابس العجل
جاءت من « الهاشمي » لا تبتغي مهرا من خاطب لبنات النظم في عطل[٣٢]

والقصيدة دليل آخر على ذوق العصر وعلى مدى ما فهم المعجبون من لامية الطغرائي • وكثيرا ما ضمن الهاشمي اعجاز لامية الطغرائي •

ولا شك في أن هناك معارضات أخرى ، وخير معارضة ـ فيما نعلم ـ لامية البارودي[٣٣] :

قلدتُ جيد المعالي حِلية الغزل وقلت في الجدِ ما أغنى عن الهزَلِ
يأبى ليَ الغيَّ قلب لا يميلُ به عن شِرعة المجد سحر الاعين النُجل
أهيمُ بالبيض في الاغماد باسمةً عن غُرّة النصر لا بالبيض في الكلل
لم تُلهني عن طِلاب المجد غانية في لذة الصَّحو ما يغني عن الثَّمَل

---

(٣١) وفي بيت الطغرائي دولة الاوغاد والسفل •
(٣٢) الهاشمي ، جواهر الادب ، باب الحكم •
(٣٣) ديوان البارودي ٢:٢٠٧ ـ • ويذكر الشارح انه قالها على قافية وروي لامية العجم للطغرائي • ذكرنا بهذه المعارضة الاديب حارث طه الراوي •

كم بـين منتـدِب يدعو لمكرُمـةٍ ... وبـين معتـكفٍ يبـكي عـلى طلـل
لولا التفاوتُ بين الخَلْق ما ظهرت ... مزيةُ الفـرق بـين الحَلي والعطَل
فانهض الى صَهوات المجـد معتليـا ... فالبـاز لم يأوِ الا عـالي القُلـل
ودع من الأمـر أدنـاه لأبعـده ... في لجُة البحر ما يغـني عن الوشـل
قـد يظفر الفاتك الألوى بحاجته ... ويقعد العَجزُ بالهيّابة الوكل[٣٤]
وكن على حَذَرٍ تسلمْ فرُبَّ فتىً ... ألقى به الأمنُ بـين اليأس والوجَل
ولا يغُرَّنْك بشـر من أخـي ملقٍ ... فرونـق الآل لا يشـفي من الغلـل
لو يعلم المرءُ ما في الناس من دَخنٍ ... لبـات من ود ذي القربى على دخَل
فـلا تثـق بودادٍ قبـل معرفـةٍ ... فالكُحل أشبه في العينـين بالكَحَل
واخشَ النميمـة واعـلم أن قائلهـا ... يُصليكَ من حرِّها ناراً بـلا شُعَل
كـم فِريةٍ صـدعت أركان مملـكة ... ومزَّقت شمْل ودٍّ غيرِ منفصـل
فاقبل وَصاتي ولا تصرِفكَ لاغيـةٌ ... عنّي فما كل رامٍ من « بني ثُعل »
انـي امـرؤٌ كفَّني حلمي وأدَّبـني ... كرُّ الجديدين من ماضٍ ومقتبـل
فمـا سريت قنـاع الحـلم عن سـفهٍ ... ولا مسحتُ جبينالعز من خجل[٣٥]
حلبت أشطُرَ هـذا الدهر تجربة ... وذُقت ما فيه من صاب ومن عسـل
فمـا وجـدت عـلى الأيـام باقيـةً ... أشهى الى النَّفسِ من حُرية العمل

وانك لواجد في هذه اللامية الفخر بالجد والطماح الى المجد وتلمس روح الحكيم المجرب الناصح بالعمل والحذر مع مسحة من الشكوى وشعور بالمرارة ، لكن ما يكاد يبلغالبارودي الحديث عن زمانه وسيرة حاكميه حتى يعلن ألمه الشديد ، وحزنه العميق على ما آلت اليه حاله وحال البلاد فيمنح أبياته كثيرا من العنف والقوة ، ولا تحس بانه يعارض أو يقلد ، فكأنه انصرف الى ما هو عليه فأعرب عنه بتأثر وشدة فعل الشاعر الاصيل ، وكل ما يجمعه بالطغرائي جامع الشكوى والشعور بالضيم ثم الثورة :

---

(٣٤) الألوى : الشديد الخصومة ، الصعب الخلق .
(٣٥) سريت : كشفت .

قامت به من رجال السوءِ طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثكلِ
من كل وغد يكاد الدّست يدفعه بُغضا ويلفظه الديوان عن ملل

* * *

قومٌ اذا أبصروني مقبلا وَجَموا غيظا وأكبادُهم تتقد من دَغَلِ(٣٦)

* * *

بئس العشير وبئست مصرُ من بلدٍ أضحت مناخا لاهل الزور والخطل
أرض تأثّلَ فيها الظلم وانقذفت صواعق الغدر بين السهل والجبل
وأصبح الناس في عمياء مظلمةٍ لم يخطُ فيها امرؤٌ الا على زلل

* * *

فبادروا الامر قبل الفوت وانتزعوا شِكالة الريث فالدنيا مع العجلِ

* * *

هذي نصيحة من لايبتغي بدلا بكم وهل بعد قوم المرء من بدل

وفي عنفوان هذا الانسجام وما هو فيه نسي الطغرائي ولاميته فقال :

أسهرت جفني لكم في نظم قافية ما ان لها في قديم الشعر من مثل ..

ولا شك في أن المعلم داود صليوا صاحب مجلة صدى بابل كان يفكر باللامية وبمعارضتها عندما كتب عام ١٩١٠ :

« حنين المشتاق : الى لقاء وزير العراق » في تهنئة رفعها الى ناظم باشا :

يا حادي العيس عج بي بالحمى وسلِ
عن قاتلي بنِبال اللحظ لا الاسل

وفيها مثل : طردت حادي الكرى من مقلتي فغدا ، ومثل أصيل رأى .. ومثل حالي العطل(٣٧) .

---

(٣٦) دغل : حقد .

(٣٧) صليوا ، صدى بابل ، بغداد .

وتسربت ـ كما هو طبيعي الى المقالات فهـذا (س٠م) آل المدرس يستشهد ـ وهو يكتب في جريدة الشرق عن الشجاعة[٣٨] بـ :

حب السلامة

فان جنحت

يرضى الذليل

وتفتح هذه الجريدة بابا ثابتا للابيات الخالدة ، وما كان لهـذا الباب معدى عن أبيات من لامية الطغرائي ٠

وفي جريدة العراق يتحدث متحدث فيقول : « بلغت هذه العاصمة منذ بضعة أيام وبقيت أتردد في أنحائها مرددا قول الطغرائي :

فـلا صـديق اليـه مشـتكى حـزني

ولا حبيب اليـه منتهـى جـذلي[٣٩]

ويردد آخر : اعلل النفس ٠٠[٤٠]

ويقول آخر :

« المجتمع العراقي ٠٠ يسير على حد قول الشاعر :

وانمـا رجـل الدنيـا وواحـدها

من لا يعـول في الدنيـا عـلى رجـل[٤١]

وفي باب « الشعر الخالد »

تقـرأ : « اذا المرء لـم يدنس ٠٠ » و » اذا انت لـم تشـرب مـرارا ٠٠ » و « ومهما تكن عند امرىء ٠٠ »

وتقرأ :

اعلل النفس بالآمـال ارقبهـا

مـا أضيق العيش لولا فسـحة الامل[٤٢]

---

(٣٨) محمود أحمد (س٠م) آل المدرس ٠

(٣٩) س ١ ، ٣٠ تموز ١٩٢٠ العدد ٥١ ص ٣ (ساعة في مكتبة السلام) ٠

(٤٠) س ١ ، ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٠ العدد ١٥٠ ٠

(٤١) العدد ٢٢١ ، س ١ ، ١٩ شباط ١٩٢١ ٠

(٤٢) العدد ٣٧ ، ١١ آب ١٩٢١ ، ص ٢ ٠

وفي العام نفسه يكتب ميخائيل تيسي « قصة المهر والزواج » ويقول ••

ان رمـت من فولك الاصــــلاح للخلـــل

تفــوز (؟) أن تقــرن الاقوال بالعمــل[٤٣]

وليس من المعقول أن لا تكون اللامية في ذهنه عند ذكر هذا البيت •

وفي عام تال يقول كاتب : « فأملوا انفراج الازمة ••

اعلل النفس •• »[٥٠]

وتصدر العراق عـددا ممتازا فتقرأ في فهرس « محتويات العدد » : لاميـة الزهاوي ، ص٢ ، وتفتح ص٢ واذا :

اندفاعات

للاستاذ جميل الزهاوي

يـكفي لاظهـــار ما في النفس من دخــــل

يــوم مــن الحـــزن أو يوم مــن الجـــذل

★ ★ ★

بغـــــداد ليست كمـا قـد كنت تعهــدها

في عهد هارون عصر العـلم والعمــل[٥١]

ولامية الزهاوي طويلة وقد وزعها قطعا متعددة في ديوانه[٥٢] •

---

(٤٣) العدد ٢٩٦ ، ١٨ أيار ١٩٢١ •

(٥٠) العدد ٥٢٦ ، ١١ شباط ١٩٢٢ •

(٥١) الزهــاوي (جميل صدقي) في جريدة العراق ، العــدد المتــاز ، ٣٩١ ، ١ كانون الثاني ١٩٢٢ •

(٥٢) ينظر ديوان الزهاوي ص ٣ ، ٤١ ، ٢٤٢ ، وينظر للمعارضة ديوان الشبيبي ص ١٤١ • الدكتور محسن جمال‌الدين هو الذي نبهنا الى وجود المعارضة في ديوان الزهاوي والشبيبي • ولم نذكر ذلك في الطبعة السابقة ظنا منا انه لا يرغب فيه • ونذكره هنا بناء على طلبه ـ وهو حقه •

لا يرغب فيه • ونذكره هنا بناء على طلبه ـ وهو حقه • ولابد من أن تكون لاميات اخرى غير قليلة العدد نظمت في معارضة لامية الطغرائي •

واتخذ طه حسين البيت : « اريد بسطة كف .. » موضوع حوار بين التلميذ الفتى واستاذه الشيخ(٥٣) .

ودخلت اللامية المدارس الحديثة في كتب المطالعة والمنتخبات وتاريخ الادب(٥٤) . ولكنها لم تلق حظا من الدراسة والتحليل . ووعد اسماعيل مظهر بدراستها(٥٥) في ضوء ما سماه « هدوء النفس الثائرة » فلقد قال ان في شعر الطغرائي « الثورة يخيم عليها هدوء نفسي قلما تأنسه في شاعر غيره . وعندي ان هذه الصفة لم تتجل في شعر الطغرائي بقدر ما تجلت في لاميته المعروفة .. »

لقد وعد اسماعيل مظهر أن يدرسها في ضوء جديد ودل وهو يمهد لدراسته هذه ، على اعجاب بها وفهم لاسرارها ولكننا ـ لسوء الحظ ـ لم نقف على جواب لوعده .

* * *

وتأثر الغربيون بعناية العرب باللامية فعنوا بها وترجموها أكثر من مرة وفي أكثر من لغة وبلاد . فلقد طبعها عام ١٦٢٩ Golius مع ترجمة لاتينية وعنه ترجمها الى الفرنسية P. Vattier عام ١٦٦٠ . وقال كرنكو : لعلها ـ أي اللامية ـ أقدم نص من الشعر العربي كان في متناول دائرة واسعة من أوربا .وأعاد H. Van der Sloot طبعها عام ١٧٦٩ في فرانكر ، ونشرها مع ترجمة لاتينية E. Pocock عام ١٦٦١ في اكسفورد ، وأعاد طبعها J. Hirth عام ١٧٧٠ في اوترخت عام ١٨٢٤ . و L.G. Pareau Institutiones Arabicae, Jena

---

(٥٣) طه حسين ـ جنة الشوك ، ١٠٦ .

(٥٤) نصت عليها أو اختارتها واختارت منها أكثر كتب تاريخ الادب التي ألفت في العصر الحديث ، اتماما لمسيرتها وزيادة في حلقاتها على الزمن ولا غرو فأكثر من ألف ، وأوائل من الف مخضرمون عاشوا أعقاب العصور القديمة وبدأوا العصر الجديد ومن هؤلاء البارودي (المتوفى سنة ١٣٢٢) مختارات ١ : ٨٧ـ٨٨ : الهاشمي (سنة ١٣١٩) ، المرصفي ٢:٢٢٦ـ٢٢٨ (سنة ١٩٠٨) ، زيدان ٣:٢٣ (سنة ١٩٣١ ..) ، الزيات ، ٢٨٢ (ط ، ٦ ، ١٩٣٥) الاثري (وجماعة) ، الاساس ، للصفوف الرابعة الاعدادية ، ١٤٦ـ١٤٧ (سنة ١٩٥٢) .

(٥٥) مظهر ، مجلة الرسالة ، العدد ٢٠٩ ص ١٠٠٥ـ٦ .

وترجمها الى الفرنسية Raux ونشرها في باريس عام ١٩٠٣ ، والى الانكليزية J.D. Carlyle في كتابه « نصوص من الشعر العربي » المطبوع عام ١٧٩٦ باكسفورد . وأعاد طبعها W.A. Glauston في كتاب « الشعر العربي » المطبوع عام ١٨٨١ . وترجمها الى الانكليزية عن نص Pocock اللاتيني L. Chapellow وطبعها في كمبرج عام ١٧٥٨[٥٦] .

ولقد اطلعت على عدد من الترجمات (الانكليزية والفرنسية) فلم أجد للمترجمين تعليقات تستحق الذكر ، وأكبر الظن انهم اعجبوا لاعجاب العرب بها ، وانهم نظروا اليها بالعقلية نفسها .

(٥٦) كرنكو في دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طغرائي ، المجلد الرابع ص ٨٢٧ . واسم كتاب كارلايل : Specimens of Arabic Poetry وكتاب كلوستون : Arabian Poetry ص ١٥٣ ، تنظر ٤٣٣ . وينظر بروكلمان ١ : ٢٨٦-٧ .

خاتمـــــة

اعتزل الطغرائي الناس مدة بعد اللامية (٥٠٥هـ) ، ولكن طماحه أكبر من أن يدعه ساكنا قانعا فعاد الى الطغراء بل هاجر الى الموصل حيث الملك مسعود أخو السـلطان السلجوقي (محمود) فأصبح وزيره ثم انضم الى الفئـة المحرضة على محاربة السلطان مدفوعا بطماحه لان يكون وزير السلطان ، ووزير الوزراء ولكنه لقي حتفه عام ٥١٥ ومات شهيدا[١] .

والمعجبون بفضله وبشعره غير قليلين ، وللمرء أن يسمع أحاديث المؤلفـين على مر العصور ابتداء من العماد الاصبهاني ليرى مكانته ومنزلته ، ولكن المعجبين باللامية أكثر وأعنف ، ولقد رأينا أطرافا من ذلك الاعجاب الذي أدى الى الرواية والحفظ والاستشهاد والشرح والمعارضة ، وتوالت الشروح واتصل الاعجاب حتى عصرنا الحاضر .

لقد كانت اللامية يوما ما ، واذا أردنا التحديد قلنا : أيام عصر عرف بالفترة المظلمة ، احدى سمات المثقف ، واحدى القصائد التي احتلت المنزلة العليا وعدت من « مهمات المتون » ونزلت منزلة « المعلقات » .

ولعلك تتذكر ان من تلك القصائد : بانت سعاد ، وعينية البوصيري وهمزيته ، ولامية العرب .. واذا نسيت هذه اللامية أو تناسيتها بسبب أو آخر ، انك لا تنسى ولا تتعصب للامية تحكمت في عصرهـا وسيطرت عليه سيطرة تامـة ، تلك هي « لامية ابن الوردي » ـ الامام سراج‌الدين عمر بن المظفر (المتوفى سنة ٧٤٩) التي نظمها لابنه في ٧٧ بيتا وعرفت بنصيحة الاخوان :

---

(١) كما رأينا في الفصل الاول من هذا الكتاب .

اعتــزل ذكر الغــواني والغزل   وقل الفصل وجانب من هزل[٢]

وأخص ما يتميز به الذوق الذي أخذ بهذه القصائد ، خضــوعه لسـلطان « الحكم والامثال » وما اليهما من نصائح وتوصيات ومواعظ في الاخلاق والتقى ، أي انه كان يرى الشعر « تعليما » ، ولا يشترط له أن يكون شعرا •

لهذا ، لم يزهنــا اعجابه بما سماه « لامية العجم » ، ولم يزهنــا المخضرمون الذين ورثوا هذا الاعجاب ، كما لم يزهنــا اعجاب المستشرقين الذين ترجموا ـ اذ ترجموا اللامية ـ قصــائد على أكبر حــظ من الرداءة الفنيــة وأقــل نصيب من الشاعرية • لقد كان اعجابهم ـ أو اهتمامهم ـ ان شئت ـ قرينا لاهتمام المخضرمين وامتدادا لذوق الفترة المظلمة ـ وهذا ما لا يشرف لامية الطغرائي كثيرا •

اننا اليوم عندما نقرأ الطغرائي ونعجب بلاميته قد نكون أصدق نظرة وأدق حكما من أسلافنا ، فلم نعد نؤخذ بمكانة الرجل من الدولة والعلم ولا بما للامية من فخامة اللفظ ووجوه البديع و « الامثال والحكم » فقــط ، انما يستهوينــا ـ أول ما يستهوينا عمق التعبير واصالة الشاعرية والاطوار النفسية التي يتقلب بينها الشاعر وهو يعرب عن أشد أزمة وقع فيها فأصابته في صميم طماحه ، ولقد كان من القوة بحيث أعرب عن الآخرين وهو يعرب عن نفسه • واذا اختلفنا واياه في هذا المعنى أو ذاك فيكفيه انه استوعب عصره وعكسه مذابا في كلمه بتمكن و « استاذية » •

واذاً فقــد احتفظت اللاميــة بتقدير عصرنــا الحديث وأطاقت مقاييسه ، ونجحت اذ سقطت معاصراتها ـ وعلى رأسها : « اعتزل ذكر الغواني والغزل » ، وبقيت وحدها من تلك « المتون » مما يستطيع أن يدخــل المجموعة الجديدة التي يمكن أن نختارهــا اليوم لمهمات المتون في الشعر العربي • أما يكفيهــا جدة أن تدرس في كلية حديثة فيعجب بها الطلبة ويقبلون على فهمها وتفهمها ويرون فيها

---

(٢) ومما يذكر انه جاء على الصفحة ٣٣٨ من المجموع الذي طبعته الجوائب وضم ـ فيما ضم ـ ديوان « الشيخ الامام العلامة ٠٠ ابن الوردي ٠٠ » انه : « ومما ينسب اليه وقد اشتهر عند الخاصة والعامة ولكن لم يوجد في ديوانه : اعتزل ٠٠ اللامية ٠٠ » •

نصا جديرا بالعناية وداعيا للاعجاب .

لقد اجتازت لامية الطغرائي دور التجربة ، ودلت على انها تحمل من عناصر الفن ما يحفظ لها البقاء طويلا على مر الاجيال واختلاف الاذواق .

ولو تحدثنا بلغة القدماء لقلنا : لو لم يكن للطغرائي الا اللامية لكفاه .

ولكن لا ، اذا كانت اللامية أشهر ما للطغرائي ، فان له الى جوارها شعرا جديرا بالاعجاب والتقدير لما فيه من اصالة تتجلى في التمكن من اللغة اذ يعرب بها عن عنف المشاعر مما حفظ له القوة والحياة على مر العصور ، وقد رأينا من ذلك أمثلة في الرثاء والفخر والشكوى ، وفي أبيات هنا وهناك .

لقـد كان الطغرائي أكبر شـعراء عصره ، ويمكن عده « أميرهم » ـ اذا تحدثنا بلغة الامارة ، واعتباره « متنبيهم » ـ مع الفارق . اذا أردنا المقارنة . وفي ديوانه من الشاعرية ما يتعدى زمانه المعين .

والى مكانة الطغرائي في تاريخ الادب مكانة تذكر في سياسة العصر وادارته ، بحيث لم يهمله تاريخ ، وبحيث مدحه شعراء مثل الابيوردي والغزي .

أما نهايته فمأساة في بابها ولم يبالغ كثيرا من عده شهيدا .

انه رجل استوعب عصره وذاق حلوه ومرة . وجود في الاعراب عما عاناه وعما عكسه ذلك العصر على صفحات نفسه وفي ثنايا مطامعه ومطامحه .

أجل ، انه رجل يكون الطماح مفتـاح شخصيته ، وتحله شاعريته منزلة محترمة حفظت للشعر العربي فى بدء انحطاطه طراوته ورعت قوتـه ، وعملت على مدافعة هذا الانحطاط ما استطاعت بعد أن بدأ ينزل بعد الشريف الرضي . وقد نستطيع أن نضعه الى صنف مهيار وقد نجرؤ فنفضله عليه بهذا أو ذاك .

• • المصــادر

• • الفهارس

المصادر والمراجع

آقابزرك ــ الذريعة الى تصانيف الشيعة ، ج ٩ ، ق ٢ ، ط ١ ، طهران ١٩٥٩ .

ابن أبي حجلة ــ ديوان الصبابة . القاهرة ١٣٢٨ (على هامش تزيين الاسواق) .

ابن الاثير ــ الكامل في التاريخ ، ليدن ، ١٩٠٨ــ١٩٣٤ (من غير نص) .

ــ تاريخ الدولة الاتابكية ــ ملوك الموصل ، باريس ، ١٨٧٩ .

ابن تعزى بردى ــ النجوم الزاهرة ، القاهرة (دار الكتب) ١٩٣٥ .

ابن حجة ــ بروق الغيث . مخ . ليدن ، رقم ١٠٣٦ .

ابن جماعة ــ التعليقة ، مخ . المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ٣٣٦١ من فهرس دسلان .

ابن خلدون ــ المقدمة . القاهرة ، ١٩٣٠ .

ــ التاريخ (كتاب العبر ــ بولاق) ، ١٢٨٤ــ١٨٦٧ .

ابن خلكان ــ وفيات الاعيان ، القاهرة (مط . الوطن) ، ١٨٩٩ (من غير نص) .

ــ وفيات الاعيان ، مخ . المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٠٨٥ ، ٢٠٥٢ ، ٢٠٥٠ .

ــ وفيات الاعيان ، مخ . مكتبة وزارة المعارف بطهران .

ــ وفيات الاعيان ، طبع كوتنك ١٨٣٩ .

ــ وفيات الاعيان ، طبعة ١٣٤٨ــ١٣٦٧ .

ــ وفيات الاعيان ، طبعة دار المأمون ، ١٩٣٦ .

ــ وفيات الاعيان : (ينظر البارزي) .

ابن الخياط ــ الديوان (رواية تلميذه محمد بن نصر بن صغير الخالدي القيسراني) تح . خليل مردم ، دمشق (المط . الهاشمية) ١٩٥٨ .

ــ الديوان . النجف (العلوية) ، ١٣٤٣ .

ابن الدمياطي ــ ينظر الحسامي .

ابن زاكور ــ كتاب تفريج أهل الكرب عن قلوب أهل الادب في معرفة لامية العرب ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٣٢٨ .

ابن الزيات ــ ديوان ابن الزيات ، القاهرة (تح . جميل سعيد) ١٩٤٩ .

ابن شاكر ــ عيون التواريخ ج ١٢ ، مخ . كمبرج رقم ٢٩٢٢ .

ابن كثير ــ البداية والنهاية في التاريخ . القاهرة . مط . السعادة ١٩٣٢ .

ابن مبارك ـ نشر العلم في شرح لامية العجم ، القاهرة (؟) ، ١٣٢٠ ٠
ابن الوردي ـ ديوان ابن الوردي ، الاستانة ، الجوائب ، ١٣٠٠ (ضمن مجموع أوله : لامية العرب ٠٠٠) ٠
ـ تاريخ ابن الدردي ، القاهرة ١٢٨٥ ٠
ابو الفدا ـ تاريخ ابي الفدا ، استانبول ١٢٨٦/١٨٧٠ ٠
الاسكندري (احمد) ـ الوسـيط ، القاهرة (دار المعـارف ، ط ١٦) ، تاريخ الطبعة الاولى ١٩١٦ ٠
الانطاكي ـ تزيين الاسواق ، القاهرة ، ١٣٢٨ ٠
أنوشروان ـ ينظر العماد (النصرة) والبنداري (الزبدة) ٠
البارزي ـ مختصر الوفيات ٠ مخ ٠ المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ٢٠٦٠ ٠
البارودي ـ ديوان البـارودي ، مطبعة الجريدة (ضبطه وشـرحه محمود الامام المنصوري ـ أحد علماء الازهر) ٠
ـ مختارات البارودي ، القاهرة ، ١٩٢٧ـ١٩٢٩ ٠
البستاني (المعلم) ـ دائرة المعارف ٠ بيروت ، ١٨٧٦ـ١٩٠٠ ٠
برهان‌الدين ـ شذرات الذهب (اشعار في الكيمياء) ٠ مخ ٠ المتحف البريطاني ، رقـم ٢٣ ٠
البصير ـ عصر القرآن ٠ بغداد ٠ (مط ٠ المعارف) ١٩٤٧ ٠
البنداري ـ زبدة النصرة ، ليدن ، (تح ٠ هوتسما) ١٨٨٩ (من غير نص) ٠
ـ زبدة النصرة ، ط ٠ القاهرة ، ١٩٠٠ باسـم (كتـاب تاريخ دولة آل سلجوق) ـ ينظر العماد (النصرة) ٠
حاج خليفة ـ كشـف الظنـون عن أسـامي الـكتب والفنـون ٠ اسـتانبول ١٣٦٠/١٩٤١ (من غير نص) ٠
ـ كشف الظنون لندن (ط ٠ فلوجل) ١٨٥٠ ٠
الحضرمي ـ نشر العلم في شرح لامية العجم ، القاهرة ، ١٣٠٩ ٠
الحسامي ـ المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار (مصور في المجمع العلمي العراقي ، ٥٨ م) ٠
حسن (محمد عبدالغني) ـ معرض الادب والتاريخ ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ٠
الحسيني (؟) ـ زبدة التواريخ (في أخبار الدولة السلجوقية) ، لاهور ، تح ٠ اقبال ، ١٩٣٣ ٠
الحنبلي ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٠ القاهرة ١٣٥٠ ٠
الخاقاني (علي) ـ مخطوطات المكتبة العباسية في البصرة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثامن ، بغداد ١٩٦١ ٠
خضر (عبدالرحمن) ـ جريدة الاسـتقلال ، السنة الخامسة ، العـدد ٤٦٩ ، بغـداد ١٩٢٤ ٠
خليف (يوسف) ـ الشعراء الصعاليـك في العصر الجـاهلي ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ ٠
الخوانساري ـ روضات الجنات ٠ فارس ١٣٠٤ ٠
داود جلبي ـ مخطوطات الموصل ، بغداد ، ١٩٢٧ ٠

الدماميني ـ نزول الغيث الذي انسجم على شرح لامية العجم ، مخ • دار الكتب المصرية ، رقم ٩٠٤١ ؛ ليدن ، رقم ١٠٠٦ •
الدميري ـ شرح لامية العجم • مخ • كمبرج رقم ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ •
الذهبي ـ دول الاسلام ، حيدر آباد ، ١٣٣٣ •
(؟) ـ العبر في أخبار من عبر • مخ • المكتبة الوطنية • باريس ، رقم ١٥٨٤ ، ١٥٨٥ •
الراوي (طه) ـ لامية العجم ، مجلة الصبح ، بغداد ، العدد ٥ـ٧ ، ١٩٣٦ •
رضائي (علي) ـ عود الشباب (مختصر خريدة القصر للعماد) مخ • فينا رقم ٢٤٦ ، نور عثمانية • مصورتان في المجمع العلمي العربي بدمشق •
الزركلي ـ الأعلام ، ط ٢ (عشرة مجلدات) •
الزمخشري ـ أعجب العجب في شرح لامية العرب ، الاستانة ، الجوائب ، ١٣٠٠ (ضمن مجموع أوله : لامية العرب ٠٠٠) •
الزهاوي ـ لامية الزهاوي (اندفاعات) ، جريدة العراق ، عدد ممتاز ، ٤٩١ ، بغداد ، ١٩٢٢ •
ـ ديوان الزهاوي ، القاهرة ، ١٩٢٤ •
زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية • القاهرة • ط ١ ، ١٩٣٧ •
الزيات ـ تاريخ الادب العربي ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٣٤٩/١٩٣٠ •
سبط بن الجوزي ـ مرآة الزمان • ج ٨ (شيكاغو) ١٩٠٧ •
ـ مرآة الزمان • ج ٨ (جزءان) ، حيدر آباد •
السبكي ـ طبقات الشافعية ، القاهرة ، المطبعة الحسينية ، ١٣٢٤ •
السمعاني ـ الانساب (نشر ماركوليوث) ليدن ١٩١٢ •
ـ ذيل تاريخ بغداد للخطيب ج ٣ ، مخ • كمبرج ، رقم ٢٩٢٤ •
ـ مذيل تاريخ بغداد • مخ • ليدن رقم ٢٦ •
سركيس ـ معجم المطبوعات العربية (حتى عام ١٩١٩) ، القاهرة ، ١٣٤٦/١٩٢٨ •
س • م (آل المدرس) ـ ينظر محمود أحمد •
السويدي (عبدالله) ـ رشف الضرب من شرح لامية العرب • مصورة في المجمع العلمي العراقي ، ١٦٥ م •
السيوطي ـ الكنز المدفون ، القاهرة ١٢٨٨ •
ـ تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، القاهرة (المط • الميمنية) ١٩٠٧ •
الشاوي (سليمان) ـ شرح لامية العرب ، مصورة في المجمع العلمي العراقي ، ١٦٦ م •
الشبيبي (محمد رضا) ـ ديوان الشبيبي ، القاهرة ، ١٩٤٠ •
الشرق ـ جريدة أصدرها حسين افنان ، بغداد ، العدد ٩ ، ٥٣ ، سنة ١٩٢٠ (الابيات الخالدة) ، وينظر محمود أحمد •
الشرواني ـ نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن • كلكتا ١٨١١ •

الشريف الرضي ـ ديوان الشريف الرضي ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت ١٣٨٠/١٩٦١ (من غير نص) ٠
شفق ـ تاريخ الادب الفارسي ٠ ترجمة موسى هنداوي ٠ القاهرة (الفكر العربي) ١٩٤٧ ٠
شيخو (لويس) ـ مجاني الادب ، بيروت ، ١٩٣٠ ٠
صليوا (المعلم داود) ـ جريدة صدى بابل ، العدد ٢٧ سن ١ ، بغداد ، ١٩١٠ ٠
الصفدي ـ كتاب الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، القاهرة ، ١٣٠٥ (من غير نص) ٠
ـ كتاب الغيث ، الاسكندرية ١٢٩٠ ٠
ـ الوافي بالوفيات ، ج ١١ ، مخ ٠ المجمع العلمي العربي بدمشق ، رقم ٨٧ ٠
صفي الدين (الحلي) ـ ديوان صفي الدين الحلي ، بيروت (صادر) ١٩٦٢ ٠
الصنهجي ـ ايضاح المبهم في شرح لامية العجم ٠ مخ ٠ المتحف البريطاني ٧٧٧ ، دار الكتب المصرية ١٠١٩ ٠
طاشكبري زاده ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، حيدر آباد ، ١٩٢٨ ٠
الطاهر (علي) ـ الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ٠ ج ١ ، بغداد (مط ٠ المعارف) ١٩٥٨ ، ج ٢ ، بغداد (مط ٠ العاني) ١٩٦١ ٠
الطغرائي ـ ديوان ، القسطنطينية ، مط ٠ الجوائب ، ١٣٠٠ ٠
ـ ديوان ، مخ ٠ المتحف البريطاني رقم ٧٥٥٨ ٠
ـ ديوان ، مخ ٠ استانبول (راغب باشا) ، رقم ١١٠٧ ٠
ـ ديوان ، مخ ٠ دار الكتب المصرية ، القاهرة ، رقم ٧٩١٧ ، ١٥٢٨ ٠
ـ ديوان ، مخ ٠ الاسكوريال ، رقم ٣٠٤ ٠
ـ ديوان ، مخ ٠ مكتبة الجامعة الاميركية ٠ بيروت ٠
ـ ديوان ، (صفحات) المتحف البريطاني ٠ لندن ، رقم ٧٥٣٠ ٠
ـ مقطعات في الصنعة ٠ مخ ٠ مكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٦١٨٩ ٠
ـ مصابيح الحكمة ومفاتيح الرحمة ٠ مخ ٠ المكتبة الوطنية ، باريس ، ٢٦١٤ ٠
ـ مصابيح الحكمة ومفاتيح الرحمة ٠ مخ ٠ مكتبة سراي ملي ٠
عاطف ـ أدبيات اللغة العربية ٠ القاهرة ٠
العاملي (محسن) ـ اعيان الشيعة جـ ١٧ ، دمشق (مطبعة الاتقان) ، ١٩٤٨ ٠
العراق ـ جريدة يومية ، العدد ٢٢١ ، ٢٩٦ ، ٣٧٠ ، ٤٩١ ، ٥٢٦ ، بغداد ١٩٢١ـ١٩٢٢ ٠
العسقلاني ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، حيدر آباد ، ١٣٤٩ ٠
علوش (جواد) ـ شعر صفي الدين الحلي ، بغداد ، ١٩٥٩ ٠
العماد (الاصبهاني) ـ خريدة القصر ، باريس ٠ مخ ٣٣٣٢ من المكتبة الوطنية ٠

– ينظر عود الشباب لعلي رضائي ·
– نصرة الفترة وعصرة القطرة · مخ · باريس ٢١٤٦ ·
– ينظر البنداري ·
الغزي – ديوان · مخ · المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ٣١٢٦ ·
– (وينظر ديوان الابيوردي المطبوع ببيروت ١٩١٧) ·
الفاخوري – (حنا) – تاريخ الادب العربي ط ٢ ، بيروت ١٩٥٣ ·
فلوجل – مخطوطات فينا ، ج ١ ، فينا ١٨٦٥ ·
القلقشندي – نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابياري ، القاهرة ١٩٥٩ ·
القمي (عباس) – الكنى والالقاب ، صيدا (مط · العرفان) ١٣٥٧–٨ ·
كحالة (عمر رضا) – معجم المؤلفين ، دمشق ، مط · الترقي ١٩٥٧ ·
الكفوي – شرح لامية العجم ، مخ · المتحف البريطاني ·
الكنعاني (نعمان) – شعراء الواحدة · بغداد ١٩٤٥ ·
المافروخي – كتاب محاسن اصفهان ، طهران (مط · مجلس) ·
المامقاني – تنقيح المقال في أحوال الرجال · النجف · المط · المرتضوية ١٣٥٠ ·
محمود أحمد – جريدة الشرق ، العدد ٤٦ ص ٣ ، بغداد ، ١٩٢٠ ·
محمود مصطفى – اعجام الاعلام · القاهرة (الرحمانية) ١٩٣٥/١٣٥٤ ·
– الادب العربي وتاريخه · القاهرة ·
المرصفي (محمد حسن) – أدب اللغة العربية ، القاهرة ، المط · الحسينية ١٩٠٨
مظهر (اسماعيل) – مجلة الرسالة ، القاهرة ، السنة السادسة ، ١٩٣٨ ، العدد ٥٢٩ ، باب : تأملات في الادب والحياة (الطغرائي الشاعر) ·
الموسوي (العباس بن علي بن نورالدين) – نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس · جزءان (من مؤلفات القرن الثاني عشر) ·
الميناوي – تحفة الرائي للامية الطغرائي · القاهرة · بولاق ١٣١١ ·
الوهابي (خلدون) – مراجع تراجم الادباء العرب ، ج ٣ ، النجف ١٩٥٨ ·
الهاشمي (أحمد) – جواهر الادب · القاهرة ١٩٢٨/١٣٤٧ ·
اليافعي – مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، حيدر آباد ، ١٣٣٧ ·
ياقوت (الحموي) – ارشاد الاريب · القاهرة (طبعة ماركوليوث) ١٩٠٩–١٩٣١ (من غير نص) ·
– معجم الادباء (ارشاد) ط · دار المأمون · القاهرة ·
– معجم البلدان · ليبزك (تحـ · وستنفلد) ١٨٦٦–١٨٧٣ ·

مراجع بلغات أجنبية

الراوندي - كتاب راحة الصدور (بالفارسية) ، ليدن (اقبال) ١٩٢١ ٠
عوفي - لباب الالباب (بالفارسية) ، ليدن (براون) ١٩٠٣-٦ ٠

Brockelmann — Geschichte der Arabischen Litterotur, 2e ed. Leyde 1943; 2 Vol. in 8e.

———— Supplementand. Heyde 1937, 3 Vol.

Browne (Ed.) — A Litterary History of Persia. Cambridge, 1929.

وقد ترجم الشورابي الجزء الخاص بالعصر السلجوقي الى العربية ، القاهرة ٠

Chapellow — The Traveler ... (Tagroi). Cambridge, Mdcclviii.

Derenbourg — Les Man uscrits Brabes de L'Escurial, Paris 1884.

Glouston (W.A.) — Arabian Poetry, Glasgow 1881.

Hartman — Litteratur Araber. Wien, 1850—1856.

Herbeloa — Bibliothèque orientale — Dictionnaire Universel. Paris, 1781.

Huart — Littérature Arabe, Paris, 1902.

Krenkow — Encyclopdia of Islam, ar. Tograi.

Raux (A) — La Lamiyyat al-Adjam d'et-Togr, Paris, 1903.

Van der Sloot — Poëma Togr. Franf. Cbeel XIX.

Zambaur — Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de L'Islam, Hanovre, 1927.

وترجمه الى العربيـة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود بعنـوان زامباور - معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، القاهرة ١٩٥١-١٩٥٢ ٠

فهرس الاعلام

لم يرد فيه ذكر الطغرائي وأسماء المؤلفين

ووردت فيه أسماء الاسر والنحل

فهرس الامكنة

(مدن ، أقطار ، أنهـار)

فهرس الكتاب